إحسان عبد القدوس

سيدة فى خدمتك..

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠



هـذه القصص كتبتهـا
وأنـــــا هنـــــاك ..

إحســــــان

لبنان

سيدة في خدمتك..

أنا أحب بيروت .. قطعاً أحبها .. ومنذ بدأت أسافر إلى الخارج وأنا أتعمد أن أمر ببيروت فى ذهابى ، وأمر بها فى عودتى .. وأقضى فيها يومين ، أو ثلاثة على الأكثر ، جالساً على رصيف الشارع فى أحد المقاهى ، أطل على الحركة السريعة العنيفة . وأملأ أذنى بالضجيج الصاخب المزعج .. وأبتسم ..

وابتسامتى فى بيروت لها طعم خاص بين شفتى ، لا أحس به فى أى بلد آخر .. إننى أحس كأنى أبتسم لعشرات الأطفال ، يلعبون أمامى ، ويصرخون ويتشاجرون ، ويثيرون الغبار .. وابتسامتى لهم فيها حب ، وفيها إشفاق ، وفيها سخرية .. وكل شىء فى بيروت أحس به كأنه لعب أطفال .. السيارات الفارهة الكثيرة المتزاحمة فى الشوارع الضيقة ، أحس بها كأنها « لعب » يلعب بها طفل مدلل .. والعمارات الشاهقة الحديثة المنتصبة فوق « رأس بيروت » أحس بها كأنها أقيمت من قطع خشبية صغيرة رتبها طفل بعضها فوق بعض ، وأخشى عليها فى كل لحظة أن تقع .. والفنادق ، والملاهى ، والحانات .. والمناقشات السياسية والأدبية التى لا تهدأ .. كل ذلك أحس به كأنه يدور فى عالم الأطفال .. لا شىء كبير فى بيروت .. لا شىء جاد .. لا شىء حقيقى .. لا شىء يحمل طابع المسئولية التى تميز الكبار عن

الأطفال .. حتى أصدقائى فى بيروت أحبهم .. أحبهم جدا .. ولكنى أحبهم كما أحب أولادى ، حتى العجائز منهم .. وأتحملهم كما أتحمل أولادى .. وأدللهم كما أدلل أولادى .. وكثيرون من أهل بيروت نصبوا علىّ .. خدعونى .. ولكنى لا أستطيع أن أعتبر نصبهم جريمة فى حقى .. كما لا أستطيع أن أؤاخذ طفلا لأنه سكب فنجان القهوة على بدلتى .. أو لأنه شد شاربى وانتزع منه بعض شعرات !!

وربما كان هذا الاحساس هو ما يحببنى فى بيروت .. إنى هناك أعفى نفسى من التعمق فى مظاهر الحياة ، وأستريح من تطبيق المقاييس العامة التى نقيس بها الأشياء .. لا أعماق هنا .. سطح بلا عمق .. وهو شىء جميل مريح أن تمضى فترات من حياتك جالساً على سطح ليس له عمق .. ولا مقاييس هنا .. لا شىء له مقياس .. وهو شىء مريح أيضاً أن تنسى ميزان عقلك .. ألا تقيس .. فالمقاييس وضعت للكبار لا للأطفال .. الأطفال يتصرفون بلا مقاييس ..

•••

ومنذ ثلاثة أعوام ، تعودت كلما ذهبت إلى بيروت أن أجلس فى مقهى « ستراند » على رصيف شارع الحمرا .. وفى مقهى « ستراند » التقيت لأول مرة بمدام شردى .. أو سعاد .. كما عرفت اسمها فيما بعد ..

كنت جالساً وحيداً ، أتناول الشاى ، وأطل على بحر السيارات أمامى ، عندما جاءنى الجرسون يقول لى :

- السيدات يدعونك إلى مائدتهن .

والتفت إلى حيث أشار لى الجرسون .. مائدة يجلس حولها خمس سيدات ، لا أعرف منهن سوى واحدة كانت تعيش فى

القاهرة مع زوجها اللبنانى ، وهاجرت معه منذ سنوات إلى بيروت .

وابتسمت لى السيدات الخمس ليؤكدن لى الدعوة التى أرسلنها لى مع الجرسون .. وابتسمت لهن وأنا أملأ عينى بأناقتهن .. إن أناقتهن فائقة ، رائعة ، ورغم ذلك فإنى أحس بكل منهن كأنها وقفت فى الصباح أمام المرآة كما تقف الطفلة الصغيرة ، وأخذت تقلد أمها فى أناقتها .. أمها باريس .. أو أمها لندن .. أو أمها برلين .. إنها أناقة مقلدة .. أناقة منقولة .. أناقة لا تعبر عن شخصية خاصة .. ليس فيها خط واحد يعبر عن شخصية .. إنما هى أناقة الفتاة التى استمعت جيدا إلى نصائح أمها .

وانتقلت إلى مائدتهن .. وتولت السيدة التى عاشت فى مصر تقديمى إليهن .. وبمجرد أن جلست ، ومنذ اللحظة الأولى ، وجدت عينى مركزتين على مدام شردى ، واهتمامى كله موجهاً لها .. ولم تكن مدام شردى أجمل السيدات الخمس ، ولكنها قطعاً أكثرهن جاذبية .. وهى تحس بأنها جذابة ، وتبذل مجهوداً ذكياً لتبقى دائماً جذابة .. وهى سيدة كل ما فيها كثير .. كثير ، لا كبير .. ابتسامتها الواسعة التى تكشف عن ثلاثة أرباع أسنانها ، ابتسامة كثيرة تكفى لتوزع على عشر سيدات .. ونظرات عينيها كثيرة ، تكفى لتوزع على عشرين عيناً .. وذكاؤها الذى يطل من خلال جبينها العالى ، ذكاء كثير ، يكفى ليوزع على خمسين سيدة .. وأنوثتها التى يضج بها قوامها الفاره الطويل ، أنوثة كثيرة تكفى لتوزع على عشرين أنثى .. وكلامها كثير .. ولكنه كلام ذكى لا تمله ..

وبسرعة استطاعت مدام شردى بذكائها أن تختار موضوعاً

يثير اهتمامى لتتحدث فيه .. ووجدت نفسى منجذباً إليها أكثر ، إلى حد أن تلاشت شخصيات الأربع سيدات الأخريات من حول المائدة .. بل إن السيدات الأربع كن منجذبات مثلى إلى مدام شردى .. تتعلق عيونهن بها .. ويضحكن لضحكتها ، ويوافقن على رأيها .. ولكن مدام شردى كانت من الذكاء بحيث تشعر كل منهن أنها أيضاً مهمة وأنها أيضاً شخصية فكانت تعطى لكل منهن فرصة للكلام فى فترات متقطعة .. وكلما تكلمت واحدة منهن عادت بحديثها إلى مدام شردى .. أليس كذلك يا سعاد .. أتذكرين يا سعاد .. ما رأيك يا سعاد .. و .. و .. وعرفت أن اسمها سعاد ..

ولم تنقض فترة طويلة حتى كنت أنا الآخر أناديها باسمها مجرداً .. سعاد .. وهى تنادينى باسمى مجردا .. كأننا أصدقاء قدماء .. إن جاذبيتها لها هذه الخاصية التى تقفز ببساطة فوق التقاليد وتختصر التفاصيل لتصل إلى النتيجة .. والنتيجة أننا أصدقاء ..

وقبل أن تنفض جلستنا دعتنى إلى العشاء فى بيتها فى نفس اليوم وقالت :

– دعوت مجموعة من الأصدقاء يسعدهم أن يتعرفوا بك ..

ولكنها قالتها بلهجة أو نغمة أحسست منها أنها تحاول أن تؤدى لى خدمة بتقديمى إلى شخصيات المجتمع اللبنانى .. وكانت دعوتها بسيطة بلا تكلف .. ولم تلح .. لم تحاول أن تغرينى .. كان المفروض أن أقبل الدعوة .. لا يمكن أن أرفضها ..

وفعلاً لم أرفض الدعوة ..

وقامت السيدات الخمس ، وركبن سيارة فخمة ، وتركننى جالساً فى المقهى ، مبهوراً بشخصية سعاد .. ثم .. عندما خف تأثرى بها ، وخفت انبهارى ، وبدأت أراجع ما سمعته منها ،

اكتشفت أنها لم تقل شيئاً هاماً .. أبداً .. بل إنى رغم كل ما قالته لم أعرف عنها شيئاً .. ربما عرفت هى عنى خلال كلماتى القليلة ، أكثر مما عرفته عنها من خلال كلامها الكثير .. لقد كان كل كلامها على السطح .. لا عمق فيه .. ولا شىء .. ولكنه رغم ذلك كان كلاماً مسلياً .. كأنك تنثر على الأرض زهورا مقطوعة لا جذور لها .. وهو فن .. فن أن تتكلم كثيراً دون أن تقول شيئاً ..

• • •

وفى المساء ذهبت إليها ..

إنه قصر فخم .. ومن أول لمحة عرفت أنى الوحيد الذى لا يرتدى ثياب السهرة .. أو الاسموكنج .. أو « رباط العنق الأسود » كما تنص بطاقات الدعوة .. واستقبلتنى سعادة وابتسامتها الواسعة تكاد تمتصنى كلى .. وقدمتنى إلى زوجها ، السيد عبد الرحمن شردى .. رجل تجاوز الأربعين .. سمين .. هادىء .. صامت .. كل ما عرفته عنه أنه من رجال الأعمال ، ولا أدرى ما هى هذه « الأعمال » بالضبط ، ولكنه لا بد أن يكون ناجحاً فيها .. وقد اختفت شخصية السيد عبد الرحمن من ذاكرتى بمجرد أن انتهيت من مصافحته .. إنه من هذا الصنف من الرجال الذى يعيش فى منطقة انعدام الوزن .. لا وزن له حتى لو كان ناجحاً .. ثم أخذتنى سعاد من يدى لتقدمنى إلى ضيوفها .. وعرفت أنها من سيدات المجتمع اللاتى يحرصن على أن يجمعن فى صالونهن شخصيات لامعة مشهورة .. ويتعمدن أن تتنوع هذه الشخصيات .. سياسى مشهور .. ومهندس مشهور .. ومطرب مشهور .. وصحفى مشهور .. وكاتب مشهور .. وراقص مشهور .. وكان فى صالون سعاد كثير من مشاهير بيروت ، بعضهم فرنسيون ، وبعضهم أمريكان .. وخيل إلىّ أنهم تقدمهم

إلىّ وهى تتباهى بهم .. أحسست أنها تقدمهم إلىّ بنفس الحماس الذى تقدم به أصناف الطعام على مائدتها ، وهى واثقة أن كل صنف قد طهى بعناية فائقة .. وربما كان أهم صنف فى صالون سعاد ليلتها ، هو الأمير محسن وزوجته الأميرة فاطمة .. أمير من أمراء البترول العرب .. ويبدو أن الحفل أقيم تكريماً له ..

وأجلستنى سعاد بجانب الأمير .. ربما تكريماً لى ، وربما تكريماً له .. إنه أمير فى مقتبل العمر .. ربما لا يتجاوز الثلاثين .. ويبدو رقيقاً مهذباً .. وثقافته أكثر مما كنت أتوقع ، ربما لأنه قضى عامين فى إحدى جامعات أمريكا ، ثم تركها قبل أن يتم دراسته ، وقضى بضعة شهور فى جامعة لندن ، وتركها أيضاً .. واكتفى بأن يكون أميراً .. وزوجته الأميرة ، صغيرة .. ربما كانت فى العشرين من عمرها .. ليست جميلة ، لكنها تحاول أن تكون أنيقة ، وترتبك قليلا وهى تحاول أن تكون سيدة مجتمع ..

ولم نتحدث كثيراً ـ الأمير وأنا ـ فقد كان كل منا مشغولاً بتتبع سعاد وهى تدور كالنحلة بين مدعويها .. توزع ابتسامتها الكثيرة .. ونظراتها الكثيرة .. وذكاءها الكثير .. وأنوثتها الكثيرة .. وخيل إلى أننا لسنا وحدنا ـ الأمير وأنا ـ اللذان نتتبع سعاد .. كل من فى الحفل يتتبعها .. وكانت سعاد قادرة على أن تشعر كل من فى الحفل أنها مهتمة بتتبعه لها .. وأنها تبادله نفس الاهتمام .. ليس الرجال فقط .. النساء أيضاً .. بل ربما كان تعلق النساء بها أكثر حرارة وصراحة .. كانت فى طوافها بمدعويها تقف مع إحدى السيدات فيلتف حولها باقى المدعوات ، ويدور بينهن حديث لا يسمعه الرجال ، وترتفع من بينهن الضحكات .. ضحكات كثيرة مجلجلة . كأجراس الكنائس فى صباح يوم الأحد .. ثم تنسحب سعاد من حلقة السيدات ، لتطوف بالرجال .. وتنسحب

بعدها كل السيدات لتهتم كل منهن برجل .. كأنهن تلقين أمراً من سعاد .. تجمعهن وتفضهن ..

وربما كانت أكثر السيدات تعلقاً بسعاد هى الأميرة فاطمة .. كانت لا تكاد تمر بها حتى تناديها :

– سعاد ..

وتنحنى سعاد على الأميرة لتحادثها .. ثم لا تكاد تنصرف عنها حتى تناديها الأميرة مرة أخرى :

– سعاد ..

وتعود إليها سعاد تتقدمها ابتسامتها الكثيرة ..

وأسمع حديثهما .. لا شىء هام .. حديث عن الأزياء، والمجوهرات، وأنباء المجتمع .. ولكن سعاد تسكب على الأميرة حناناً، خيل إلىّ أنه حنان صادق .. وتحادثها كأنها مسئولة عن سعادتها وراحتها .. وتمد يدها وتعدل لها كتف الثوب كأنها أختها الكبرى .. والأميرة تنظر إليها فى حب وتدله ..

وبعد العشاء، فتحت صالة خاصة للرقص .. وسعاد ترقص مع كل مدعويها .. وتعطى كل من يرقص معها كل ما يريد .. إذا أراد أن يلصقها به، التصقت .. وإذا أراد أن يبعدها عن صدره، ابتعدت .. وإذا أراد أن يضع شفتيه قريباً من أذنها، أعطته أذنها .. و .. و ..

والأميرة فاطمة لا ترقص ..

ولا الأمير محسن ..

ولا أنا ..

ولكن الأمير ركبته حالة عصبية .. ربما لأنه لا يرقص .. ويدخن سيجارته كأنه يمضغها بأسنانه .. وينقر على المائدة الصغيرة بأصابعه نقرات غير منتظمة .. ويهز قدمه فترتعش

ساقه كلها .. ثم انتفض واقفاً، وقال فى حدة :

– سأذهب ..

ووقفت معه الأميرة فاطمة ..

وجاءت سعاد مهرولة ..

وجاء السيد شردى أيضاً ..

ووقفت مع الأمير قائلا :

– سأذهب أنا الآخر ..

وودعتنا سعاد وزوجها حتى الباب الخارجى .. وخرج مع الامير شاب لبنانى لعله سكرتيره .. وسيدة لبنانية لعلها وصيفة الاميرة ..

وركبت الأميرة ووصيفتها سيارة، يقودها سائق وبجانبه رجل أسود من حاشية الأمير ..

وجذبنى الأمير من ذراعى إلى سيارة أخرى . قائلاً :

– اسمح لى أن أوصلك ..

وجلس الأمير فى مكان السائق، وجلست بجانبه، والسكرتير فى المقعد الخلفى .. وقال ونحن فى الطريق :

– ما رأيك لو جلسنا نتحدث قليلا .. ولو أنى أريد أن أحدثك طويلا ..

قلت

– لا مانع ..

قال

– نذهب إلى مسكن صلاح ..

وصلاح هو السكرتير الذى يجلس فى المقعد الخلفى ..

وذهبنا إلى هناك ..

شقته فى إحدى العمارات الجديدة فى شارع الحمرا .. شقة

عازب .. ولم نكد نجلس حتى التفت إلى محسن .. الأمير محسن .. وسألنى :

– هل إيمانك بالحب حقيقى أم مجرد كلام ..

قلت وأنا دهش للمفاجأة :

– حقيقى طبعاً ..

وتنهد الأمير كأنه يستجير من نار فى صدره ، وقال وهو يمسح على وجهه بكفه كأنه يمسح عنه دخان النار .

– يبدو أن الإنسان يكون أسعد بلا حب .. إنك تستطيع أن تأخذ كل شىء بلا حب فلماذا الحب ..

قلت :

– سواء سعد الإنسان أو شقى .. سواء أخذ أو لم يأخذ .. فهو لا يستطيع أن يعيش بلا حب ..

واستطردنا فى مناقشة الحب .. مناقشة طويلة استمرت حتى الرابعة صباحا .. وكان واضحاً أن الأمير يعانى أزمة عاطفية عنيفة .. أزمة حب .. ولم أر فى حياتى إنساناً يتعذب فى رقة .. ويتألم فى استسلام .. قدر ما رأيت الأمير ليلتها ..

●●●

فى صباح اليوم التالى .. فى الساعة العاشرة .. دق جرس التليفون فى غرفتى بالفندق .. وكانت سعاد .. وفرحت بها .. فرحت فعلا .. وصحت بها :

– متى أراك ..

قالت وأنا أحس كأن ابتسامتها تطل علىّ من سماعة التليفون :

– إن يومى مزدحم .. سأذهب الآن إلى الأميرة فاطمة لأصحبها إلى السوق .. ثم سنذهب سوياً لتناول الغداء عند بعض أقاربها .. أتدرى .. لقد أقنعتها بأن تتلقى دروساً فى اللغة

الفرنسية ، وسأعرفها بمدرسة خاصة بعد الغداء .. وبعد ذلك مدعوة إلى حفل كوكتيل .. ثم إلى العشاء .. إنى أستطيع أن أقابلك بين الكوكتيل والعشاء ..

قلت :

– لنتركها إلى الغد ..

قالت :

– قل لى أولاً .. لقد سمعتك تتحدث أمس عن اسم دواء تبحث عنه ، ولا تجده .. ما اسمه ..؟

قلت :

– لا تتعبى نفسك ..

قالت :

– لا تعب .. ما اسمه ؟

وقلت لها اسم الدواء .

وقالت :

– سيكون عندك بعد ساعة .. وسأبحث عنك بعد حفلة الكوكتيل وسأجدك ..

وبعد ساعة كان الدواء الذى أبحث عنه ، يطرق باب غرفتى فى الفندق ، ومعه فاتورة الحساب .. دفعتها ..

وبعد الكوكتيل وجدتنى سعاد .. حادثتنى فى التليفون ، لتعتذر لى ..

وبدأت أسأل عن سعاد .. إن كل الناس يعرفونها .. بعضهم يحبها ويقدرها .. وبعضهم يحقد عليها ويبغضها .. ولكنها معروفة جداً .. وخدومة جداً .. إن كل من عرفها حدثنى عن خدمة أدتها له .. وقد رأيت سعاد بعدها مرات .. وفى كل مرة ازداد اهتمامى بها ، إنها شخصية لا تستطيع أبدا أن تنساها ..

ولا تستطيع أن تشبع منها .. ربما لأنها دائماً مشغولة خصوصاً مع الأميرة فاطمة .. إنها تحدثنى عن الأميرة فاطمة كأنها تحدثنى عن ابنتها أو عن أختها الصغرى ..

●●●

ثم كان يوم ..

وكنت أسير فى شارع الحمرا على الرصيف الذى تقع فيه العمارة التى يسكنها سكرتير الأمير محسن ..

وفجأة ..

رأيت سعاد تخرج من باب العمارة .

ورأيت الأمير محسن خلفها .. كأنه تركها تخرج قبله حتى لا يراها أحد معه ..

والتقت عيناى بعينى الأمير محسن .. فارتبك .. وتوارى .. وادعى أنه لم يلمحنى ..

ورأتنى سعادة ، فخطت نحوى . ومدت يدها إلىّ وصافحتنى .. وابتسامتها متسعة إلى آخرها .. لم تهز رموشها .. لم تبرد يدها .. لا شىء .. لا شىء يدعو إلى الارتباك .. ولا شىء يمكن أن أسىء تفسيره ..

وصاحت فرحة بلقائى :

– إلى أين ؟

قلت :

– أتشرد ..

قالت ضاحكة :

– تعال وتشرد معى .. هناك بضع سيدات فى انتظارى بمقهى ستراند .. يسعدهن أن يلتقين بك ..

وشدتنى من يدى لأعبر معها الشارع .

والتفت خلفى إلى باب العمارة .. إن الأمير محسن لا يزال يتوارى منى .. وقد أعطى ظهره للباب حتى لا أرى وجهه ..

وجلست مع سعاد وصديقاتها فى مقهى ستراند .. وهى كما هى .. ابتسامتها كثيرة .. ونظراتها كثيرة .. وذكاؤها كثير .. وأنوثتها كثيرة .. وفجأة أمسكت إحدى الصديقات بيد سعاد ورفعتها إلى أعلى ، وهى تصيح مبهورة :

– سعاد .. ما هذا .. خاتم جديد .

ونظرت إلى أصبع سعاد ، وفيه خاتم من الماس .. فص واحد فى حجم الزلطة الصغيرة ..

وعادت الصديقة تصيح :

– إنه يساوى خمسين ألفا ..

وقالت سعاد بهدوء وبساطة :

– أكثر ..

ثم طافت بيدها على بقية الصديقات ، وكل منهن تنظر فى الخاتم بعينين جاحظتين منبهرتين ..

وبلباقة ورشاقة وسرعة سحبت سعاد يدها وحولت الحديث إلى موضوع آخر .

وأدرت رأسى ناحية العمارة التى تقع فيها شقة سكرتير الأمير .. شقة العازب .. كأنى أبحث عن الأمير محسن ..

●●●

وفى صباح اليوم التالى سافرت إلى أوروبا .. وقبل أن أغادر الفندق طرق بابى رسول يحمل صندوقاً من الحلوى ، ومعه بطاقة من مدام شردى .. سعاد .. « مع السلامة .. لا تغب طويلا .. نراك بخير » !!

إنها لا تنسى شيئاً أبداً ..

إنها من هذا الصنف الذى يلفك فى مجاملاته حتى لا تستطيع الفكاك منه ، فتستسلم ..

وحملت صندوق الحلوى ، وركبت الطائرة ..

وغبت فى أوروبا شهراً ..

ثم عدت إلى بيروت فى طريقى إلى القاهرة ..

وجلست فى مقهى ستراند كعادتى .. أبتسم هذه الابتسامة التى تمتاز بطعم خاص لا أشعر به إلا فى بيروت ..

وفجأة ، وقفت أمامى سيارة ، وهبط منها الأمير محسن ، واندفع نحوى واحتضننى صائحاً :

– كأن الله استجاب دعائى .. لقد كنت أفكر فيك من لحظة .. إنى فى حاجة إليك ..

ثم شدنى من يدى نحو السيارة قائلا :

– اركب ..

وركبت وأبواق السيارات من حولنا تصرخ احتجاجاً على سيارة الأمير التى عاقت مرور شلال السيارات فى الشارع الضيق ..

وأخذنى هذه المرة إلى بيته فى مصيف « عاليه » .. فوق الجبل .. وحدثته خلال الطريق عن رحلتى فى أوروبا ، وهو يستمع حيناً ، ويسرح معظم الوقت .. وعيناه غائرتان كما لم أرهما من قبل .. تحتهما هالتان من السواد كأنهما بصمات ليل شقى .. وكان عصبياً .. يكاد يكون مريضاً . يده ترتعش وهو يرفعها بالسيجارة .. وشفتاه ترتعشان وهما تنفثان الدخان .. وجهه أصفر ممصوص .. وعندما وصلنا إلى البيت ، نزل من السيارة مهرولاً ، وسار فى خطوات سريعة كأنه يهرع إلى علاج حالة خطيرة .. ثم أجلسنى على مقعد وشد مقعداً آخر وجلس

أمامى ، وقال وشفتاه ترتعشان وهما تنفثان الدخان :

– اسمع .. إنك بكل تجاربك وبكل علمك .. تستطيع أن تحرجنى .. لقد رأيتنا معاً .. لا تنكر .. لقد حاولت يومها أن أتوارى منك ، ولكنى كنت متأكداً أنك رأيتنا وفهمت .. إن هذا هو كل ما آخذه منها .. تأتى إلى الشقة كلما أردت ، وكلما استطاعت .. وتبقى ساعة أو ساعتين ، وهى كما هى .. لا شىء يتغير فيها .. نفس الابتسامة التى توجهها لعشرات الرجال .. ونفس النظرات التى تنظر بها إلى كل الناس .. ونفس الحديث .. ثم تلملم نفسها وتخرج .. كأنها جاءت لتعطى الدواء لمريض .. كأنها كانت فى دكان تشترى ثوباً .. لا شىء تغير فيها منذ عرفتها .. حياتها لم تنحرف مللى واحد .. ولا أحاسيسها .. لم تتنازل عن حفلة كوكتيل واحدة من حفلاتها من أجلى .. لم تضح بصديق واحد من أصدقائها الذين أكرههم من أجلى .. لم يتغير منها شىء أبدا .. أنا الذى تغيرت .. جننت .. إنى أحبها .. أحبها .. قل لى ماذا أفعل .. إنك تتحدث كثيرا عن الحب .. حدثنى..

قلت وأنا أنظر إليه فى إشفاق :

– ليس هذا هو الحب الذى أتحدث عنه ..

وصرخ :

– لا تعطنى درساً فى الأخلاق .. لا تعظنى .. إن أمامك مريضاً .. حاول أن تنقذه .. أنت لا تدرى كم أتعذب .. كم أعانى .. لم أكن أنتظر كل هذا .. لقد بدأ كل شىء سهلا طبيعيا .. لقد عرفتها وكانت كريمة معنا .. أنا وزوجتى .. دعتنا أكثر من مرة إلى بيتها .. ووضعت نفسها فى خدمتنا .. أصبحت زوجتى لا تستطيع الاستغناء عنها .. ولا أنا .. ثم كنا نذهب إلى الملاهى معاً .. وعرفنا كثير من أصدقائها .. وكنت أرقص معها .. وتجرأت

مرة وضممتها إلى صدرى .. فسكتت .. استسلمت .. وخيل إلىّ أنها تضغطنى إليها .. ثم تجرأت أكثر وأسقطت خدى على خدها .. وسكتت .. وخيل إلىّ أنها تحبنى .. وأصبحت أعيش لها .. أصحو فى الصباح مندفعاً إليها ، وأقضى المساء معها .. وسط الأصدقاء .. كانت أياماً حلوة .. وكان يمكن أن تكفينى تلك الأيام .. ولكن .. متى اكتفى الرجل .. لقد طلبت منها أن نلتقى وحدنا .. وأبت ، بلباقة .. دون أن تجرحنى ودون أن تغلق الباب فى وجهى .. باب الأمل .. وأنا أغرقها بالهدايا .. لو كنت أستطيع أن أشترى لها كل الدنيا لاشتريتها .. وأخيراً رضيت بلقائى .. جاءت إلىّ .. جاءت وكأنها كانت تعلم ما ستعطيه بالضبط .. وأعطته لى .. بسرعة .. وبلا تردد .. كأنها ترد إلىّ هداياى .. ومن يومها لا ترفض أن تأتى ولكنها دائماً هكذا .. أنا الذى بدأت أتغير .. بدأت أحبها .. أحببتها .. وكانت تمر علىّ لحظات يخيل إلىّ فيها أنها أيضاً أحبتنى .. لحظات .. أرى فيها ابتسامتها قد هدأت بين شفتيها .. ونظراتها قد استكانت .. وحديثها قد سكت .. لحظات أحس فيها أنى بالنسبة لها قد أصبحت رجلا آخر غير عشرات الرجال الذين يتزاحمون فى حفلاتها .. لحظات نادرة قليلة .. ثم فجأة تنتصب أمامى قوية كما هى .. وتخرج إلى دنياها كأنى لم أكن سوى مجرد واحد .. وأحس أنى فقدتها .. فقدتها .. أحس أنى لن أستطيع أن أسيطر عليها أبدا .. أن أجعلها لى .. لى وحدى ..

وأجهش الأمير بالبكاء ..

وسكت قليلا حتى هدأ ، ثم سألته وأنا أحاول أن أكون رفيقاً به :

– ماذا تريد منها ؟

قال وهو ينظر إلىّ كأنه يتهمنى بالغباء :

– أريدها أن تحبنى .. ويوم تحبنى ستلقى بكل هذه الحياة التى تعيشها ، وتصبح لى .. لى وحدى ..

قلت :

– إن الحب يحدث ، ولا يطلب .. لا تستطيع أن تطلب من إنسان أن يحبك .. تستطيع أن تطلب منه أى شىء إلا الحب .. لأنه لا يستطيع أن يعطى شيئا لا يملكه .. ونحن لا نملك الحب ، ولكنه يحدث لنا ..

قال فى غضب :

– وماذا أفعل أنا ؟

قلت :

– لا تحبها ..

قال :

– ولكنى أحبها فعلاً ..

قلت :

– ارض بها كما هى ..

قال :

– لا أستطيع .. سأجن ..

قلت :

– قاوم حبك ..

قال :

– لا أستطيع ..

قلت :

– هل عرضت عليها الزواج ؟

قال فى دهشة :

– من أدراك ؟

قلت :

– هل تعتقد أنك عرضت عليها الزواج لأنك تحبها ..

قال :

– طبعاً ..

قلت وأنا أنظر فى عينيه فى حزم :

– أبداً .. لقد عرضت عليها الزواج لأنك تريد امتلاكها .. إن أزمتك أزمة امتلاك ، لا أزمة حب .. وما يعذبك منها هو استقلال شخصيتها .. هو إحساسك بأنك لا تستطيع أن تخضع هذه الشخصية وتفنيها .. إنها أقوى منك .. ولو أنك تزوجتها ، وامتلكتها لشفيت مما تسميه حباً .

وخبط الأمير على المائدة بقبضته خبطات متوالية ، وهو يصرخ كالطفل العنيد :

– ولكنها رفضت .. رفضت أن تتزوجنى ..

وعاد يجهش بالبكاء ..

وجاء رجل من داخل القصر على صوت صراخه ، وأعطاه حقنة مورفين لينام ..

• • •

وفى صباح اليوم التالى ، اتصلت بى سعاد فى التليفون ، وجلجل صوتها مرحاً ينبض بالصحة والعافية :

– الحمد لله على السلامة .. كيف لم تسأل عنى ..

قلت :

– كنت على وشك أن أسأل .. متى أراك ؟

قالت :

– إنى على موعد مع الأميرة فاطمة .. سنذهب إلى صيدا ..

اسمع .. سأمر عليك فى ستراند فى السادسة .. اتفقنا ..

قلت وأنا أبتسم لنفسى :

– اتفقنا ..

وجاءت فى السادسة .. لم يتغير فيها شىء .. ابتسامتها الكثيرة .. ونظرتها الكثيرة .. وذكاؤها الكثير وأنوثتها الكثيرة .. وكلامها الكثير .. وأناقتها التى تبدو بها كأنها طفلة وقفت أمام المرآة لتقلد أمها الكبيرة ..

وقلت لها وأنا أحاول أن أنظر فى عينيها

– لقد رأيت الأمير محسن ..

قالت فى بساطة :

– قالت لى الأميرة فاطمة إنه مريض ..

قلت :

– إنه يتعذب ..

والتفتت إلىّ وابتسامتها لم تفتر ، وقالت بلا دهشة :

– لماذا ؟

قلت :

– لقد حكى لى كل شىء ..

وانكمشت ابتسامتها قليلا ، كأنها غضبت .. وخيل إلىّ أنها لم تغضب لأنى عرفت ، ولكنها غضبت لأن الأمير لجأ فى شكواه إلى غيرها ..

وقالت :

– إنى لا أعرف ماذا يريد .. لقد أعطيته كل شىء .. ولكنه يريد شيئاً لا أعرفه ..

قلت :

– إنه يريد الحب ..

قالت دون أن تحتد .

– لا تكن خـياليـاً أنت الآخـر .. فسـر لى هذا الحب تفـسيـراً أستـطيع أن أفهـمه .. مـاذا يريد بالضبط .. إنى أفـهم أنه يريد أن يلقانى .. أن يرقص .. أن يأكل .. أن يشرب .. أن يسافر .. كل ذلك أفـعله له .. الـشىء الوحـيـد الذى رفـضـتــه هو أن أتزوجـه .. مسـتحيل .. إنه مجنون .. لا أنـا أطيق أن أعيش فى بلده ، ولا هو يطيق أن يعيش فى بلدى .. ثم لماذا الزواج ..

قلت :

– إن الحب ليس خدمة ..

قالت :

– ماذا تعنى ؟

قلت :

– إنك تتحدثين كأنك مستعدة أن تقدمى له أى خدمة ..

قالت :

– وما الخطأ فى ذلك .. العالم كله خدمـات متبادلة .. هو يقدم لى خدمة وأنا أقدم له خدمـة .. إنى أحب أن أقدم للناس خدمات ، وأن يقــدم لى الناس خـدمـــات .. وكل هؤلاء الأصــدقـــاء الذين أعرفهم .. ما قيـمتهم .. يقدمون لى خدمات .. ومـا قيمتى .. أقدم لهم خدمات .. هل هذا عيب ؟! .. هل هذا حرام ؟!..

قلت وأنا أحنى رأسى فى يأس :

– لا ..

قالت :

– بالمناسبة السيد بيضون يريد أن يقابلك ؟

قلت :

– من هو بيضون ؟

قالت :

النائب .. إنه مرشح للوزارة .. ولا شك أنه يهمه جداً أن يتعرف بصحفى كبير مثلك ..

قلت :

– سأتصل بك غدا ..

•••

ولم أتصل بها ..

ولكن مندوباً من الأمير جـاء إلىّ ، يرجونى أن أذهب إليه ، لأنه مريض جداً ، ويريد أن يرانى ..

وذهبت إليه ..

ولم يكن فى فـراشــه .. كـان مـرتدياً بدلتـه الـكاملة وفى يده مسدس يقلبـه بين يديه ، وفى ركـن الغرفـة عـبد أسـود يجلس القرفصاء كأنه غراب البين ..

ونظر إلىّ الأمير ، نظرة طويلة ، وقال :

– ماذا أفعل .. هل وجدت الحل ؟

قلت :

– سافر إلى بلدك ..

قال :

– هل هذا هو الحل الوحيد ؟..

قلت :

– واشتر جاريتين فى طريقك ..

ورفع إلىّ عينيه فى دهشة ، وقال :

– إنك ما زلت عند رأيك ..

قلت :

– نعم .. أنـت لا تريد الحب .. تريـد التــملك .. وهـى لا تريد الحب .. تريد خدمة .. وآسف .. كنت أحسبك مريضاً ..

وانصرفت ..

وتركتـه يقلب المسدس بين يديه ، ولا أدرى هل كـان يفكر فى قتل سعاد ، أم فى قتل نفسه ..

وأحس بالإشفاق عليها وعليه ..

●●●

وارتفـعت بى الطائرة .. وألقـيت نظرة أخـيرة على بيـروت .. لا شىء كبير هنا .. لا شىء جاد .. لا شىء حـقيقى .. لا أعماق .. لا مقاييس .. هنا سطح بلا عمق .. وحـياة بلا مقاييس .. والأطفال يلعبون ، ويصرخون ، ويتشاجرون ، ويثيرون الغبار ..

كـوبـا

فنجان قهوة بارد !

هافانا .. كوبا .. وكنت أقيم فى فندق « هافانا رفيرا » .. فندق كبير .. من أكبر وأفخم الفنادق العالمية التى أقمت فيها ، وقد بنى قبل الثورة ليستقبل السياح من أصحاب الملايين الأمريكان عندما كانت كوبا كلها مجرد ملهى كبير لأصحاب الملايين .. لكل منهم غرفة فى فندق ، أو بيت فى حى ميرامارا الأنيق ، تنتظر فيه خليلة من بنات « المولاتس » ريثما يعود إليها سيدها من شاطىء الولايات المتحدة ، فى عطلة نهاية الأسبوع ..

وبنات « المولاتس » ـ كما تقول إحدى الأغانى الكوبية ـ هن أجمل بنات الدنيا .. وهن البنات اللاتى يمتزج فى عروقهن الدم الأسبانى بالدم الزنجى .. أو الدم الأمريكى بالدم الأسبانى .. وأجمل الجميلات ـ كما يقال فى كوبا أيضاً ـ هى التى يختلط فى عروقها الدم الزنجى ، بالدم الصينى .. إنهن كوكتيل بشرى رائع اللون ، مثير .. ولم يكن يكلف المليونير الأمريكى حتى يتذوق كأساً من الكوكتيل البشرى ، إلا أن يركب طائرته الخاصة ، وبعد نصف ساعة فقط ، يكون فى غرفته بالفندق ، أو فى بيته بحى ميرامار .. يرشف كأسه !..

وقد أحسست بإحساس صاحب الملايين بمجرد أن دخلت فندق « هافانا رفييرا » .. القاعات الواسعة الأنيقة تمتد أمام عينى ..

والديكور يكسو الأرض والجدران بمظاهر الفخامة والأبهة .. وثلاث صالات ليلية ـ داخل الفندق ـ تعزف فى كل منها فرقة موسيقية تكاد أنغامها الراقصة ترفعنى عن الأرض وتطير بى ..

ولكن .. بعد قليل . بدأ إحساسى بأنى مليونير يزايلنى .. لا يكفى أن تعيش فى بيت مليونير لتحس بإحساس المليونير .. إنما يجب أن تملك ثروة مليونير ، وأن يحيط بك مجتمع مليونيرات ، وأن تتبنى ذوق المليونيرات وتقاليد المليونيرات ، وأن يكون لك عقل مليونير ، وقلب مليونير .. إن اختلاف المستوى الاقتصادى يخلق أنواعاً مختلفة من البشر ، لا مجرد طبقات من نوع واحد .. أنواع مختلفة فى طبيعتها ، وفى عقليتها ، وفى ذوقها .. والشعب عندما يفرض ثورته على أصحاب الملايين ، لا يطالب بأن يعيش حياتهم ، ويتبنى تقاليدهم ، إنما يثور ليحصل على حقه فى أن يعيش حياته هو .. وذوقه هو .. وتقاليده هو .. حياة وذوق وتقاليد الشعب .. وهكذا تتطور الحضارات الإنسانية بفضل الثورات .. كل ثورة تفرض حضارة جديدة تعبر عن ذوق الشعب .. ذوق الشعب فى كل نواحى الحياة .. فى هندسة المبانى ، وفى صناعة الأثاث ، وفى الآداب الاجتماعية ، وفى ألوان الطعام .. و .. و ..

ورغم ذلك فقد حرصت ثورة كوبا على أن تحتفظ بكل مظاهر متعة أصحاب الملايين .. حتى الاستعراضات العارية الفخمة فى ملهى كوباروم ، والتروبيكانا .. لا تزال كما هى تعرض كل مساء .. سواء شاهدها أربعة متفرجين أو أربعمائة .. وهى استعراضات تكلف مئات الدولارات كل ليلة ، وتزيد فى روعتها عن استعراض الفولى برجير والليدو فى باريس ، واستعراضات برودواى فى نيويورك ..

والفنادق الفخمة بعد أن انقطع عنها السياح الأمريكان ، خصصتها الحكومة لضيوفها الأجانب ، ولعمال « الفانجورديا » - أى عمال الطليعة ، وهم المتميزون فى الانتاج - تدعو كلاً منهم لقضاء أسبوع فى أحد هذه الفنادق كمكافأة له .. ثم خفضت أجر الإقامة فى الفندق من ثمانين دولاراً فى اليوم إلى ثمانية دولارات حتى يتمكن العرسان الجدد من قضاء أيام من شهر العسل فى الفندق الفخم ..

المهم ..

بدأت إقامتى فى فندق « هافانا ريفييرا » تطبق على صدرى .. وزملائى نزلاء الفندق لا يزيدون على بضعة أفراد .. شاعر روسى وزوجته دعتهما الحكومة الكوبية .. ووفد من كوريا الشمالية يدرس مشاريع تربية الدجاج .. وعريس وعروسه فى شهر العسل .. هؤلاء فقط يقيمون فى فندق يزيد عدد حجراته على مائتى حجرة .. وأحسست كأنى وهم حبات من الحصى تتخبط داخل شخشيخة .. وموظفو الفندق الذين يزيد عددهم أضعافاً على عدد النزلاء ، يتسكعون فى تكاسل .. وعامل الأسانسير العجوز يفتح لى الباب وهو جالس على مقعد يقرأ فى جريدة الحزب ، ثم يرفع عينيه من خلف نظارته وينظر إلىّ فى تعال كأنه يعلم أنى ضيف الحكومة ، وأنه يدفع من عمله نفقات إقامتى .. بلا مبرر !

وفتاة شقراء جميلة من موظفات الفندق ، تشبه مارلين مونرو ، ترتدى زى الحرس الوطنى وتحمل بندقية وتقوم بدورها فى الحراسة .. والمقاعد التى طال إهمالها تحمل على مساندها بقعاً سوداء .. وقاعة الطعام ليس فيها إلا أنا وأربعة آخرون .. وقائمة الطعام الطويلة هى نفس القائمة التى كانت تقدم لأصحاب الملايين

ولكن المكتوب شىء ، والموجود شىء آخر .. والجرسون هو نفسه الذى كان يخدم صاحب الملايين .. إنه ينظر إليك نظرة غائمة كأنه يتساءل ماذا جرى فى الدنيا .. وكأس « الداكرى » - وهو الكوكتيل الوطنى - فى يدى وقد ذاب فيه الثلج من طول ما أهملته ، ولم يعد له طعم .. والاستعراض الفنى الرائع الذى يعرض أمامى على مسرح « كوبا روم » - داخل الفندق - ينقصه شىء كبير يكاد يفقده روعته .. ينقصه الجمهور .. إن الجمهور لا ينفصل عن المسرح ، إنه جزء من المسرح .. ومن المسرحية .. إن مجرد امتلاء المقاعد بالمتفرجين يضفى على المسرح رهبته ، وروعته ، وحيويته ، ويضفى على الممثل شخصيته ويمنحه رنين صوته ، وقدرته على التعبير والاندماج .. ولكن ، فى تلك الليلة ، لم يكن هناك جمهور ، أنا وعشرة آخرون ، وربما أقل .. والأجساد الفاتنة التى تتحرك على المسرح فى إطار فنى عبقرى ، والتى يزيد عددها على مائة ، تبدو كأنها أجساد تائهة تبحث عن شىء .. تبحث عن الجمهور .. وأصفق طويلاً وبشدة .. كأنى أحاول أن أعوض هؤلاء الفنانين عن آلاف المصفقين .. ويرتد إلىّ صدى تصفيقى فى القاعة الكبيرة الفارغة .. فأشعر بالخجل والحرج ، ويخيل إلىّ أن الراقصات ينظرن إلىّ فى إشفاق ، وواحدة منهن تقول : « لا تتعب نفسك .. تعال ليلة الأحد ، وستجد هذه القاعة مزدحمة بالجمهور .. إننا نستمد الأمل من ليلة الأحد » !..

وجريت إلى غرفتى فى الطابق الثانى عشر ، هرباً من ضيق تلك الليلة ..

غرفة واسعة رائعة ، على الطراز الأمريكى .. طراز أصحاب الملايين ، مكيفة الهواء .. وأنا أحس كلما دخلت غرفة مكيفة الهواء ، أنى دخلت فى فريجيدير ، أغلق بابها علىّ .. أحس أنى

أصبحت قطعة من اللحم المحفوظ تنتظر إلى أن يفتحوا عليها الباب ليسحبوها ويضعوها على النار .. إنها حالة نفسية أشبه بحالتى عندما أدخل السجن .. إن السجن يعطل قدرات الإنسان الطبيعية على التفكير بصوت عال ، والغرفة المكيفة الهواء تعطل قدرات الإنسان الطبيعية على تكييف نفسه لاحتمال الجو المحيط به .. إن أى تعطيل لقدرة الإنسان ، سجن .. والسجان هنا هو هذه الآلة .. آلة تكييف الهواء !

ووقفت داخل سجنى أتطلع من خلال النافذة الزجاجية العريضة إلى مياه خليج المكسيك .. هادئة ، غامضة ، مثيرة ، تعلوها طبقة منخفضة من أبخرة رطوبة المناطق الحارة ، كأنها دخان يتصاعد من مصباح علاء الدين ، وكأن هذه الأبخرة ستتجسد فى لحظات لتصبح عفريتاً .. وشبيك لبيك عبد وبين إيديك .. ومن بعيد ، ومن فوق الأبخرة ، تبدو أنوار المدمرة الأمريكية « إكسفورد » التى تقف هناك دائماً لمراقبة شواطئ كوبا .. ربما خوفاً من أن تزحف جيوش كوبا لتحتل أمريكا .. لا .. أمريكا لا تخشى جيوش كوبا .. إنها تخشى حرية كوبا !..

وفجأة انطلق الرعد يمزق هدوء الليل .. وانطلق البرق يمزق الظلام .. رعد مخيف ، وبرق يعمى العينين .. ثم هطل المطر .. إن المطر فى المناطق الحارة غزير ، ثقيل ، لزج ، كأن السماء تمطر زيتاً ..

وادعيت الهدوء .. بينى وبين نفسى .. وجلست أتم قراءة كتاب فيدل كاسترو : « التاريخ سيحكم لى » .. إنه ليس كتابا ، ولكنه نص المرافعة التى ألقاها فيدل أمام القضاة عندما قبض عليه قبل أن تنجح الثورة ويتولى الحكم .. مرافعة رائعة .. قطعة أدبية .. تنبض كل كلمة فيها بالحماس فى أعلى ذروته .. إنك تحس أن

كاسترو لم يفقد حماسه لقضيته من أول كلمة إلى آخر كلمة .. ولم تنخفض درجة هذا الحماس فى سطر عنها فى سطر آخر .. ومن السهل دائماً أن تتحمس عندما تكتب ، أو عندما تترافع ، أو عندما تثار ، ولكن من الصعب دائماً أن تحتفظ بحماسك ، وأن تحتفظ به فى درجة حرارة واحدة .. وربما كانت ميزة الزعيم الثورى أن طبيعته تعينه على الاحتفاظ بحماسه فى درجة حرارة واحدة .. بل إن الزعيم الثورى لا يستطيع أن يحتفظ بزعامته إلا مدى ما يستطيع الاحتفاظ بدرجة حرارة حماسه .. لا يتعب .. ولا يفتر .. ولا يتنفس إلا من خلال حماسه لقضيته .. وعندما تقرأ كاسترو قبل نجاح ثورته ، وتقرؤه بعد نجاح الثورة .. وإلى اليوم .. تجد أن أكبر مقومات شخصيته هو هذا الحماس الذى لا تنخفض أبدا درجة حرارته ، كأنه حماس ينطلق من فرن دائم الاشتعال يحتفظ به فى صدره ..

وانتهيت من قراءة « التاريخ سيحكم لى » ..

وتعبت ..

تعبت من خواطرى السياسية ..

ومرة واحدة انطلقت من غرفتى إلى الشارع .. لم يهمنى الرعد ولا البرق ولا المطر ، ففى كوبا استأنسوا الرعد .. واستأنسوا البرق ، واستأنسوا المطر ، واستأنسوا المحيط ، واستأنسوا أيضاً المدمرة الأمريكية « إكسفورد » ، فأصبحوا يبحثون عنها كل صباح عند الأفق ، فإذا رأوها اطمأنوا إلى أن ليس هناك جديد ، وإذا لم يجدوها أعلنت حالة الطوارىء .. فربما سحبت المدمرة استعداداً للغزو !

وسرت تحت المطر الثقيل ملتفاً بمعطف « ووتر بروف » ، وعلى رأسى « باتشنجا » .. أى قبعة صغيرة مما يرتديها أهل

المدن .. والقبعة الكبيرة التى يرتديها الفلاحون ، اسمها « سومبر يرو » ، وفى كوبا يدللون القبعات ويغنون لها .. هناك أغنية عن الـ « سومبر يرو » ورقصة اسمها « باتشنجا » ، وعندما تحب أن تدلل قبعتك تستطيع أن تسميها « باتشنجيتا » ..

ولم يكن لى هدف من السير فى الشارع إلا أن « أتوه » .. وهذه هى عادتى دائماً كلما داهمنى الزهق وأنا فى بلد غريب .. أخرج إلى الشارع وأحاول أن « أتوه » .. أن « أضيع » .. هذه المحاولة تملؤنى بإحساس المغامرة .. كلما اخترقت شارعاً جديداً لا أعرف إلى أين يؤدى ، أشعر بشعور المكتشف .. المغامر .. ويقفز خيالى إلى تصور مغامرات كثيرة قد تحدث لى .. قد تهجم علىّ عصابة وتقتلنى .. قد يصادفنى رجل يقودنى إلى سر من أسرار البلد .. قد .. وقد .. عشرات من الصور تطرأ على خيالى وأنا أجوب الشوارع بلا وعى ، وتزيح عنى ثقل الإحساس بالزهق ، وتنشط خيالى .. وعادة أعود من حيث أتيت .. إلى غرفتى فى الفندق .. دون أن يحدث لى شىء .. ولكنى لا أندم .. فمجرد توقع المغامرة ، إحساس لذيذ منعش .. يشغلنى عن خواطرى .. وعن نفسى التى تتعبنى ..

وهافانا تكاد تنقسم إلى ثلاثة قطاعات .. من الناحية الهندسية ومن ناحية مظاهر المدنية .. قطاع أمريكى .. وقطاع أسبانى .. وقطاع زنجى ..

ليس لكوبا مظهر شخصية كوبية متميزة ، ولكن هناك محاولة ناجحة لخلق الفن المعمارى الكوبى ، قام بها مهندس عبقرى عندما وضع تصميم مدينة الفنون التى أقيمت فى ضواحى هافانا .. إننى لم أر فى حياتى تصميماً هندسياً أروع ولا أغرب من تصميم مدينة الفنون ـ وهى تضم جميع المعاهد الفنية .. الرسم ،

والرقص ، والموسيقى .. و .. ـ وقد استعان فيه المهندس بطابع الهنود الحمر ، سكان كوبا الأصليين ، كمحاولة لخلق طراز كوبى صميم متميز ..

والقطاع الأمريكى ، أمريكى مائة فى المائة .. العمارات العالية .. والمحال التجارية .. وأضواء النيون .. حتى الإعلانات التجارية عن البضائع الأمريكية لا تزال فى مكانها .. كوكاكولا .. فايرستون .. جوديير .. ومحطات البنزين على الطراز الأمريكى ، وبمعدات أمريكية وأسماء الشوارع ترجمة أمينة لأسماء شوارع نيويورك وواشنطن .. ومبنى منقول حرفياً عن مبنى الكابيتول الأمريكى .. الفرق الوحيد بينه وبين الكابيتول أن عدد أعمدته يزيد عموداً واحداً .. الملاهى كلها على الطراز الأمريكى ، تدار بأسلوب أمريكى ، تحمل أسماء أمريكية .. « جونى ٨٨ » ، « رمبا بالاس » « كاريبى صالون » .. و .. إن عدد الملاهى فى هافانا قد يصل إلى مائة .. مائتين .. وكانوا يقولون دائما : « إنك إذا أردت أن ترى كل ملاهى هافانا ، فيجب أن تقضى فيها عاماً » .. وقد كانت كل هذه الملاهى عامرة ، عندما كانت كوبا مدينة ملاه للسياح الأمريكان .. وبعد الأمريكان ، أغلق بعضها ، ولكن أغلبها لا يزال يعمل .. بلا نشاط .. وبلا حماس .. ويطبع المدينة بالطابع الأمريكى .. وربما كانت مظاهر الحضارة الأمريكية وتأثيرها أكبر من ذلك .. وأذكر أنى وأنا فى طريقى إلى كوبا كان معى فى الطائرة فرقة من بنات المدارس كن فى زيارة تشيكوسلوفاكيا .. وهبطت الطائرة فى مطار كندا .. وهرعت البنات إلى دكاكين البيع داخل المطار ، ووقفت أرقب ماذا يشترين بالدولارات الأمريكية القليلة التى يحملنها .. كلهن اشترين لباناً أمريكياً « تشكليتس » .. اشترين بكل ما معهن من دولارات .. « تشكليتس » فقط .. وأذكر أيضاً

أنى كنت فى « كاماوى » ـ إحدى مقاطعات كوبا ـ أتفرج على موكب الكرنفال الذى أقيم فى يوم عيد المقاطعة ـ ولكل مقاطعة هناك عيد كرنفال ـ وأخرجت علبة سجائر أمريكية « مالبرو » وأنا جالس على إحدى درجات المدرج الخشبى الذى أقيم فى الميدان الكبير .. وإذا بفتاة شابة تسقط علىّ من أعلى المدرج .. وتصيح فى وجهى بفرح كأنها عثرت على كنز :

– مالبرو .. هل أستطيع أن آخذ سيجارة ..

قالتها بالأسبانة ـ لغة كوبا ـ ولكنى فهمت ما تعنيه ، فأعطيتها علبة السجائر كلها ، ولا أدرى ماذا جرى للفتاة بعد ذلك ، وبعد أن حدجها مرافقى بنظرة غاضبة !..

وسرت طويلا فى شوارع القطاع الأمريكى .. شوارع تكاد تكون خالية من الناس .. وقد كانت هافانا ـ عندما كانت مدينة ملاه ـ تبدأ الحياة فى الساعة الحادية عشرة ليلاً ، وتنام فى الفجر .. ولكنها الآن تنام فى الحادية عشرة وتستيقظ فى الفجر ..

وعندما تتطلع إلى وجوه الناس فى شوارع هافانا يخيل إليك أنك تسير فى القاهرة .. نفس ملامح الوجوه .. ونفس الألوان : الأبيض ، والأسمر ، والأسود .. وقد زالت التفرقة العنصرية بين الألوان تماماً .. وكان الزنوج أحق الناس بالتمتع بمكاسب الثورة بعد العذاب الطويل الذى عاشوا فيه أيام الاستعمار الأسبانى ، ثم أيام النفوذ الأمريكى .. فأصبحوا بعد الثورة هم « اللون المدلل » ، الثورة تدللهم .. والشعب يدللهم ، وأصبح مظهراً من مظاهر الثورة والتقدم أن يكون صديقك الحميم زنجياً ..

والفتاة الكوبية تكاد تكون نسخة من الفتاة المصرية .. إحساسها الطاغى بأنوثتها .. وأسلوب التزين .. ونفس العواطف الحارة الجياشة .. وربما كان الفرق الوحيد أن ثياب المرأة الكوبية

أضيق من ثياب المرأة المصرية !.. وقد خرجت فتاة كوبا إلى العمل .. واشتركت فى الثورة ، وجندت فى الحرس الوطنى ، وأدت خدمات رائعة لوطنها ، ولكنها لم تفقد أبداً إحساسها الطاغى بأنوثتها .. ودلالها !..

بل ربما كان شعب كوبا كله فيه كل خصال الشعب المصرى .. الطيبة والمرح ، والعاطفة الجياشة ، والاستسلام القدرى ، والإحساس الفنى .. ربما لأن شعب كوبا نصفه أسبانى .. ونصفه زنجى .. فيه طباع البحر الأبيض ، وطباع أفريقيا .. كالشعب المصرى !..

وانتهيت فى سيرى من القطاع الأمريكى دون أن تصادفنى أية مغامرة .. كنت فى كل خطوة أترقب أن يخرج إلىّ من إحدى علب الليل التى أقيمت تحت الأرض ، شخص يثير انتباهى ويشدنى إلى مغامرة .. كنت أتوقع أن أضبط بعض الكوبيين الذين يفرون إلى ميامى عبر خليج المكسيك .. كنت أتوقع أن ألتقى بفتاة تبكى .. أو فتاة تجرى كالمجنونة وخلفها رجل شاهر خنجره .. كنت أتوقع مغامرات كثيرة يصورها لى خيالى القصصى .. ولكن .. لا شىء !!..

ووجدت نفسى فى القطاع الأسبانى .

كأنى أسير فى شوارع مدريد أو فى شوارع برشلونة ، نفس طراز الشوارع « البرادو » .. ونفس الأسماء .. ونفس البيوت ، والكنائس ، ونفس الحانات والدكاكين ..

وفى مقهى هناك سمعت مطرباً شعبياً يغنى « كاريوكا » .. وهى شىء آخر غير ما تتصوره السيدة تحية كاريوكا .. وغير الرقصة القديمة المعروفة .. إن أغانى كاريوكا هناك أشبه بأغانى أبو دراع ومحمد طه عندنا . يرتجل المطرب الشعبى مجموعة من

الأزجال يحيى بها الحاضرين ، أو يتغنى بها بالانتصارات الوطنية ، ويلقيها على أنغام موسيقى « الجاز » وينهى كل شطرة من الزجل بكلمة « كاريوكا » .. وهى كلمة نسيت أن أسأل عن معناها !..

وكوبا كانت دائماً مصدر كل الأنغام والرقصات التى ملأت الدنيا .. كوبا هى التى أعطت العالم موسيقى الكونجا ، والتشاتشا ، والبتشانجا .. و .. و .. وكانت الشركات الأمريكية تستولى على إنتاج الفنانين الكوبيين ، وتتولى إذاعته على العالم وتجنى من ورائه أرباحاً هائلة .. ولم تستطع حكومة كوبا أن تحل محل الشركات الأمريكية ، وقد ظهرت فى كوبا ألحان جديدة ورقصات جديدة ، رائعة ، مدهشة ، ولكن العالم لم يسمع بها .. لأن أحداً لم يستطع أن ينقلها إلى العالم .. موسيقى ورقصة « الموزمبيكى » .. و « الباكاه » ـ ومعناها « تعال لى » ـ و « البيلون » ، ومعناها « الهون » .. موسيقى ورقصات لو سمعها الراقصون فى أنحاء العالم ، لجنوا ..

وفى كوبا يهتمون بابتكار « الريتم » أى الوزن الموسيقى ، أكثر مما يهتمون بابتكار خطوات الرقص .. ويعزفون الألحان التى نعرفها بأسلوب آخر لم نسمعه .. وقد سمعتهم يعزفون « الكونجا » بأسلوب غريب مثير .. كانت تعزفها فرقة من ثمانية عشر قارع طبل .. ثمانى عشرة طبلة مختلفة الأحجام والأشكال تنطلق منها أنغام قوية حلوة .. يقف لها شعر رأسك .. وهذه هى الكونجا الأصلية ، قبل أن يتولى الأمريكان توزيعها على العالم ..

و ....

وخرجت من القطاع الأسبانى ، لأجد نفسى فى القطاع الزنجى .. هناك فى أطراف المدينة ..

وأنا أسميه القطاع الزنجى مجازاً ، لأن البيوت الخشبية الفقيرة المصطفة تحت أشجار جوز الهند ، وأشجار « بالماريال » ـ وهو نوع من النخيل الأبيض ـ وينتشر بينها نبات « السيلاس » وهو نبات ينطلق من باطن الأرض فى أوراق حادة طويلة جافة كأنها الحراب .. هذه البيوت تذكرنى بالأحياء التى سرت فيها عندما زرت دكار ، وباماكو ، وأكرا فى أفريقيا الغربية ..

ولكن هناك فرق كبير ..

فعندما تطل داخل البيت الخشبى الصغير الفقير ، تجده مؤثثاً بأثاث مودرن ، نظيف .. وراديو ، وتليفزيون ، وفريجيدير .. ثم تنطلق من داخل البيت فتاة شقراء حلوة ترتدى « البلوجينز » وتعقص شعرها على نمط ذيل الحصان ..

●●●

كم سرت على قدمى ؟

ساعتين .. ثلاثاً .. أربع ساعات .. لا أدرى .. ولم أشعر بالتعب ، فإنك عندما تسير على قدميك مستغرقاً فى أفكارك وأحاسيسك ، تصل إلى حد لا تشعر بعده بالتعب .. ولكنك تسير بخطوات ميكانيكية ، كأنك تتنفس بقدميك ..

وأفقت على ضوء الفجر يصدم عينى ، وقد انقطع المطر ، وسكت الرعد ، وانطفأ البرق ، وتلفت حولى فإذا بى أكتشف أنى تائه فعلا .. وأنا ضعيف فيما يسمونه « الإحساس بالاتجاه » ، أى أنى لا أستطيع أن أحدد بالضبط الاتجاه الذى سرت فيه حتى أعود منه .. ورغم ذلك فقد كنت مصمماً على ألا أطلب من أحد أن يدلنى على الطريق .. فقط استدرت ، وعدت أسير .. والناس بدأت تخرج إلى الشارع مع الصباح وأنا أبحلق فى وجوههم بعينى اللتين أرهقهما السهر والرطوبة ، كأنى أحاول محاولة يائسة أن

اكتشف من خلف وجوههم أسرار كوبا ..

إلى أن التقيت بمقهى ..

ليس مقهى .. بار .. بار يقدم القهوة والفطائر .. عبارة عن بيت خشبى متواضع يقع على حافة الطريق ، ومن خلفه أرض فضاء تكسوها الحشائش ، وترتفع فيها بعض أشجار جوز الهند ، والنخيل الأبيض ..

وفى الداخل مائدة بار .. عالية .. مستديرة .. تصطف حولها المقاعد العالية .. وتقف خلفها سيدة سمينة ضخمة ، مكتنزة الوجه .. ربما كانت فى الأربعين من عمرها ، وربما كانت أكثر من ذلك ..

وتعلقت عيناى بوجه هذه السيدة ، وأنا أتسلق أحد مقاعد البار لأستريح عليه .. إن فى وجهها طيبة عجيبة .. ينطلق منه شعاع هادىء يربت على أعصابك حتى تستريح .. وفيه مرح برىء يبدو فى رعشة وجنتيها المكتنزتين .. وفى عينيها الخضراوين هدوء ساكن كهدوء أشجار جوز الهند فى ليلة حارة ، وعمق كعمق مياه خليج المكسيك .. ولونها أسمر يميل إلى البياض ، أو أبيض يميل إلى السمرة .. ربما كانت ـ فى أيامها ـ أجمل الجميلات .

وأحسست وأنا معلق العينين بهذا الوجه ، أنى التقيت بكوبا .. كوبا كلها ..

واقتربت منى ، وقلت لها وأنا أبتسم لها ابتسامة كبيرة :

– قهوة .. موتشو كالدو .. موتشو .. موتشو كالدو ..

ولا أدرى هل تكلمت بالإيطالية أم بالأسبانية ، ولكنه تعبير تعودت أن أستعمله فى كوبا ، وتعودت أن يفهموه منى ، ومعناه « ساخن جدا » .. فهم فى كوبا يقدمون القهوة باردة ، أو تكاد تكون باردة ، ويشربون الفنجال فى جرعة واحدة .. وأنا لا أطيق

القهوة باردة ، ولا أطيق أن أشرب الفنجال فى جرعة واحدة ، فكنت كلما طلبت فنجال قهوة صحت : « موتشو كالدو .. موتشو .. موتشو »!

وابتسمت لى السيدة ابتسامة صغيرة حازمة ، أصغر بكثير من الابتسامة التى انتظرتها منها ، والتى يوحى بها وجهها الطيب ..

وتكلمت باللغة الأسبانية كلاماً فهمت منه أنها تسألنى :

– هل أنت روسى ؟!

وضحكت .. ففى كل بلاد العالم يخطىء الناس فى نسبتى إلى وطنى .. قد يعتقد البعض أنى إيطالى .. أو أسبانى .. أو جريكى .. ولكن لا أحد قبل اليوم خيل إليه أننى روسى .. ربما لأن معظم الاجانب فى كوبا من دول الكتلة الشرقية .. روس .. تشكوسلوفاك .. بلغار .. ألمان .. صينيون .. كوريون .. إلخ .

وقلت وأنا ما زلت أضحك :

– لا .. أخيتو !

أى مصر ..

واتسعت ابتسامة السيدة ، كأنها ازدادت اطمئناناً إلىّ ، وصاحت :

– آه .. ناصر ..

قلت :

– نعم .. ناصر ..

قالت وهى تقترب منى بوجهها :

– هل تتكلم الانجليزية ؟

قلت :

– نعم ..

قالت فى مرح وبلغة إنجليزية سليمة :

– إذن ، لماذا لا تتكلم بهـا .. سآتيـك بفنجان قـهوة سـاخن .. ساخن جداً ..

واستـدارت لتعـد لى فنجـان القهـوة .. ولمحت صليبـاً فضـياً صغيراً معلقاً فوق صدرها الضخم .. وأنا أعرف أن الثورة الكوبية تركت الناس أحراراً فى ممارسة شعائر الدين ، ولكن ليس كل من يعلق الصليب فى كوبا متديناً ، إن كـثيرين يعلقون الصليب ، فقط ليعلنوا أنهم ليـسوا شيوعـيين ، وكنوع من الاحتجـاج الصامت .. نوع من المعارضة السلبية .. وقـد حضرت الصلاة مرة فى إحدى الكنائس .. وكان اليـوم يوم ثلاثاء ، وليس يوم الأحد ، ورغم ذلك كانت الكنيـسة مزدحمة .. ولم تـكن مزدحمة بالعجـائز ، أى جيل ما قبل الثورة ، بل كان بين المصلين كثير من الشبان والشابات .. جيل الثورة .. وقـال لى يومها أحد الأصـدقاء : « إن بعض الناس يحـرصـون اليـوم على التـردد علـى الكنائس ، أكـثـر مما كـانوا يحرصون قبل الثورة .. كنوع من المعارضة السلبية » !

وعادت السيدة الطيبة بفنجان القهوة ، وكان ساخناً فعلاً ، ربما كان أطعم فنجان قـهوة ، ذقته فى كوبا .. أحسـست وأنا أرتشفه كأن القهوة تسرى فى أعصابى كلها وتذيب الإرهاق والرطوبة من جسدى ..

وهى لا تزال واقفة قبالتى تبحلق فى وجهى كسائحة تنظر إلى مومياء توت عنخ آمون ..

وقلت لها وأنا أتفادى نظرتها وابتسامتها :

– إنك تعلقين الصليب !!

وربما فـهمت مـا أعنيه ، ومـسحت على الصليب بأصـابعـها ، وقالت وابتسامتها تضيق :

– هذا .. من زمان !

قلت وأنا أحاول أن أكون خبيثاً :

– قبل الثورة ؟

قالت بلا مبالاة :

– نعم .. قبل الثورة !

قلت :

– واللغة الانجليزية .. إنك تتكلمينها بطلاقة ..

قالت فى هدوء :

– من قبل الثورة أيضاً ..

قلت فى سذاجة الصحفى المبتدىء :

– وما رأيك ؟

قالت فى دهشة :

– رأيى فى ماذا ؟

قلت :

– فى الثورة ..

وارتخت تعابير وجهها كأن أملها خاب بعد أن اكتشفت سخافة السؤال . وقالت :

– لقد كان أخى واحداً منهم ؟

قلت فى دهشة :

– ممن ؟

قالت وهى تهز كتفيها :

– من رجال فيدل .. فيدل كاسترو .

قلت وقد انتعش انتباهى :

– وأين هو الآن ؟

قالت بلا مبالاة أيضاً :

– قتل ..

قلت :

– كيف ؟

قالت كأنها لا تريد أن تستمر فى الحديث :

– فى معركة المونكادا ..

والمونكادا كانت قلعة عسكرية أيام حكم الديكتاتور باتستا ، تقع فى مدينة سان تياجو دى كوبا عاصمة ولاية أورينتى فى أقصى الجزيرة .. وقد هاجمها كاسترو ورجاله عام ١٩٥٣ بقصد الاستيلاء عليها ليتخذها نقطة ارتكاز يبدأ منها زحفه إلى هافانا ، ولكن الهجوم فشل ، واستطاع كاسترو أن يهرب ، واختبأ عند قسيس ، ورفض القسيس أن يسلمه للحكومة إلا بعد أن وعدت بأن تقدمه إلى المحاكمة ..

وارتفع صوت المرأة الطيبة هادئاً خفيضاً ، قائلة :

– لقد كان فى السابعة عشرة من عمره .. كان يقيم معنا ، أنا وزوجى .. وكان كثير الصمت ، لم أسمعه مرة يناقش زوجى .. ولكنه كان يقرأ كثيراً .. ويخرج دون أن أعرف إلى أين يذهب ، ولم يكن يهمنى أن أعرف ، كان كل ما يهمنى أن يعود .. وكان يعود دائماً .. إلى أن خرج مرة ، ولم يعد .. ذهب وقتل نفسه فى الهجوم على قلعة مونكادا ..

وسكتت المرأة قليلاً ، ثم استطردت بنفس الهدوء ، كأنها تحلم :

– تصور خمسة وأربعين شاباً لا يزيد سن أكبرهم على الخامسة والعشرين يهاجمون ثكنة عسكرية .. لقد كان كل منهم يواجه خمسين جندياً مسلحاً .. مجانين !

قلت كأنى أصحح معلوماتها :

– لقد كان عدد الثوار ١٢٥ ، على ما أذكر ..

قالت بلا اهتمام ، ودون أن تنظر إلىّ :

بعضهم احتل البيوت المحيطة بالقلعة .. وبعضهم احتل المستشفى القريب .. وبعضهم تاه فى شوارع المدينة .. والذين هاجموا القلعة لم يزد عددهم على خمسة وأربعين بقيادة فيدل ..

وقلت كأنى أشجعها على الاستطراد فى الحديث :

– وقتل أخوك أثناء الهجوم ..

قالت فى برود عجيب :

– لا .. أسروه .. وعذبوه ليتكلم .. خلعوا أظافره ، وأحرقوا جلده ، ثم نزعوا إحدى عينيه ، وقطعوا إحدى أذنيه .. ولما لم يتكلم ، قتلوه ..

قلت كأنى أواسيها :

– لقد انتقموا لأخيك ..

قالت بنفس الهدوء :

– من ؟

قلت :

– الثوار ..

وهزت كتفيها بلا مبالاة ، وقالت :

– الثوار قتلوا زوجى ..

وشهقت وأنا أغرق فى الدهشة ، وصحت :

– لماذا ؟ .. كيف ؟!

ونظرت إلىّ كأنها تتعجب لدهشتى ، وقالت فى بساطة :

– كان من رجال باتستا .. واتهموه بعد الثورة بالاختلاس ، والرشوة والخيانة .. إنى لم أكن أعرف أن زوجى مرتشياً أو خائناً ، كل ما كنت أعلمه عنه أنه زوج طيب .. أنه خير الأزواج ..

قلت لها كأنى أواسيها :

– كان يجب أن تشفع له دماء أخيك !

قالت وهى تبتسم ابتسامة صغيرة :

– لم يكن ليرضى أن يشفع له أحد .. لقد ذهب وحارب مع جنود باتستا .

وسكتت وابتسامتها الصغيرة لا تزال معلقة على شفتيها ، ثم قالت كأنها تسائل نفسها :

– لقد تركوا باتستا يذهب وهو يحمل أطناناً من الدولارات ليعيش بها فى الخارج عيشة المليونيرات .. فلماذا لم يتركوا زوجى يذهب أيضاً ..

ثم هزت كتفيها ، وقالت فى إهمال :

– لا يهم ..

وابتعدت لتخدم بعض الوافدين .. وأنا ألاحقها بعينى دهشاً .. ولم تكن دهشتى لما سمعته منها ، ولكن للبساطة التى كانت تتحدث بها ، كأن كل ما حدث كان أمراً طبيعياً .. أن يقتل أخوها وهو يحارب مع كاسترو .. وأن يقتل زوجها وهو يحارب مع باتستا .. لا يهم .. كأن سنة الحياة أن يستشهد الرجال دفاعا عن مواقفهم .. لم يكن فى حديثها حقد ، ولا حزن ، ولا ندم .. فقط ذكريات .. ذكريات حوادث مرت .. والدهشة تكاد تقتلعنى من فوق مقعدى ..

وأشرت إليها بعد قليل ، وقلت وأنا أحاول أن أخفى انفعالى خلف ابتسامتى :

– هل أستطيع أن أطلب كوباً من اللبن الساخن ..

وفجأة التمعت عيناها ، واحتقن وجهها ، وقالت فى حدة عنيفة :

– ليس عندى لبن .. وليس فى بيتى لبن .. ألا تدرى .. ليس عندنا شىء .. كل شىء أصبح بالبطاقات .. ثلاثة أرباع رطل لحم

فى الأسبوع .. رطلان من الخضار .. أربعة أرطال أرز .. حذاءان فى السنة .. ثلاثة جوارب فى السنة .. قميصا نوم فى السنة .. والبرتقال ، إنك لا تستطيع أن تشترى برتقالة إلا بشهادة موقع عليها من طبيبين .. والبيض ..

وازداد لمعان عينيها ، واشتد احتقان وجهها ، وخبطت على حافة البار بيدها الثقيلة ، وصاحت :

– لقد كنت أفطر كل يوم بأربع بيضات مقليات .. وكنت أتعشى بست بيضات .. عجة .. كنت أعيش بالبيض .. أتدرى ماذا حدث .. لقد حرموا علينا البيض .. عام كامل لم نذق فيه طعم البيض .. ثم سمحوا لكل واحد بخمس بيضات فى الشهر .. هل هذا معقول .. انظر إلىّ .. هل تكفينى خمس بيضات فى الشهر .. لقد رفضت أن آكل البيض .. أعطيت نصيبى لابن شقيقتى ، إنه أحق به منى ..

كانت تتكلم وكل قطعة من جسدها ترتعش .. تهتز .. وخيل إلىّ أن البناء الخشبى الذى نجلس فيه يهتز معها .. بل خيل إلىّ أن كوبا كلها تهتز معها ..

إنها لم تهتز وهى تحدثنى عن استشهاد شقيقها ، وعن موت زوجها .. ولكنها تهتز وهى تحدثنى عن حرمانها من اللحم والبيض .. وحديثها فيه حقد ، وفيه غل ، وفيه ثورة !!

وابتعدت عنى بخطوات عصبية كأنها تخشى أن تحرقنى بثورتها ..

وسرت وراءها حتى اقتربت منها ، وقلت فى اضطراب كأنى أخاف فعلا ثورتها :

– إنى لا أعرف طريقى إلى الفندق .. هل تدلينى ؟

وقالت وهى لا تزال محتدة :

– أى فندق ؟

قلت :

– هافانا ريفييرا ..

وقلبت شفتها السفلى فى امتعاض وقالت :

– بيدرو يوصلك إلى هناك .. إن عنده بسكليت !

وجلست فوق العجلة الخلفية من دراجة بيدرو ، وأوصلنى إلى الفندق ، ووجه المرأة الطيبة يشغل كل خيالى .. وكل كلمة سمعتها منها ترن فى أذنى ، كما ترن المطارق الثقيلة على الأبواب المغلقة ..

ولم أستطع النوم ..

كان يجب أن ألتقى بالمرأة الطيبة مرة أخرى .. كنت أحس أنى لم ألتق بكوبا إلا عندما التقيت بهذه المرأة .. واستطعت أن أهرب من مرافقى فى نفس المساء ..

وذهبت إليها فى البيت الخشبى العتيق ..

ووقفت أرقبها من بعيد .. كانت مرحة أكثر منها فى الصباح .. وكانت تضحك ضحكات كبيرة .. وتخطو كأنها ترقص التشاتشا .. وما كادت تلمحنى حتى صاحت فى تهليل :

– ناصر ..

واقتربت منها ، وقبل أن أجيبها قالت من خلال ضحكتها الكبيرة :

– هل قرأت صحف الصباح ..

وهززت رأسى : لا ..

قالت وهى تتنطط كطفلة وصوتها يرن كالزغرودة :

– لقد أباحوا البيض .. أنزلوا إلى الأسواق خمسين مليون بيضة ، وتستطيع أن تشترى منها ما تشاء .. بثمن رخيص .. إن

• فنجان قهوة بارد ! •

ثمن البيضة اليوم نصف ثمنها زمان .. أتدرى كم بيضة أكلت اليوم .. وحتى الآن ..

وأشارت بأصابع يدها أمام وجهى :

خمسة عشر بيضة .. إن بيدرو يقول إنى سأموت لو أكلت بيضة واحدة زيادة !!

ورنت ضحكتها تملأ أرجاء البيت الخشبى العتيق ، وخيل إلىّ أن كوبا كلها تضحك ..

ثم قالت وهى تهز رأسها فى وقار العالم :

– إنى أعرف فيدل .. إنه صادق فى وعده .. لقد سبق أن وعدنا بأن يبيح البيض ، بعد أن يتم مشروع تربية الدواجن ، وقد تم المشروع .. من كان يظن أن هؤلاء الشبان يستطيعون أن يفعلوا كل ذلك ..

ثم مالت على أذنى وقالت وكأنها تهمس :

– لقد سمعت أنهم سيبيحون اللحم فى الشهر القادم ..

وبسرعة وخفة ألقت أمامى بفنجان قهوة .. وكانت قهوة باردة .. ونادها بعض الزبائن ..

ووقفت أنظر إليها من بعيد .. كأنى أنظر إلى كوبا ، والأمل الكبير ..

الحرب

زوجة من الشاطئ الآخر ..

الدار البيضاء .. ولم تكن المرة الأولى التى أزور فيها الدار البيضاء . زرتها من قبل خمس أو ست مرات خلال العشر سنوات الأخيرة .. وفى كل مرة يدهمنى نفس الشعور .. الشعور بالضياع .. ليس الضياع بين شوارع وأزقة المدينة ، ولكن الضياع فى شخصية المدينة ..

وبعض المدن الكبيرة قد يكون لها شخصية ذاتية ، كلندن مثلا ، وبعضها قد يكون له شخصية عالمية ، انصهرت فيها مختلف الشخصيات ونتج عن انصهارها شخصية عالمية متميزة ، كجنيف فى سويسرا مثلاً ، وبعض المدن قد تنقسم إلى شخصيتين ، شخصية حديثة ، وشخصية قديمة ، والحديث له كيانه ، والقديم له كيانه ، كالقاهرة .. ولكن الدار البيضاء ليس لها شخصية على الإطلاق .. لا شخصية ذاتية ، ولا شخصية عالمية ، ولا هى منقسمة إلى شخصيتين لكل شخصية كيانها .. إنما هى مركز صراع عنيف بين شخصيتين متنافرتين ، تمتزجان فى جزء من كيانهما ، وتتباعدان فى جزء آخر ، ثم تعودان وتتباعدان حيث امتزجتا ، وتمتزجان حيث ابتعدتا .. إن المدينة كنقطة التقاء النيل بالبحر الأبيض عند رأس البر ، حيث تتلون المياه بلون لا هو لون مياه البحر ، ولا هو لون مياه النيل ، وإنما هو لون لا شخصية له ..

وكنت أحس بضياع الشخصية فى الحوارى والأزقة ، وفى الشوارع الواسعة الأنيقة ، وفى الأسماء المختلطة العجيبة التى تحملها يافطات الدكاكين وفى الحروف العربية التى تحمل خطوط الحروف اللاتينية ، وفى الحروف اللاتينية التى تحمل خطوط الحروف العربية ، وفى أردية الناس ، وفى لغتهم ، وتصرفاتهم ، وبيوتهم ومقاهيهم ، وفى الناس أنفسهم .. إنى لم ألتق بإنسان من أهل الدار البيضاء إلا وأحسست بالمعاناة القاسية التى يتحملها حتى يحدد شخصيته .. إنه يفكر بالفرنسية ، ويترجم أفكاره إلى اللغة العربية ، ثم يفكر بالعربية ويترجم أفكاره إلى اللغة الفرنسية .. دون أن يقصد ، أو يتعمد .. إنما هى محاولة يائسة تلقائية يبذلها للخلاص من الصراع العنيف داخل نفسه بين الشخصيتين المتنافرتين .. ويتعب ، وأتعب معه .. ونكف عن الحديث فجأة لا لأن الحديث انتهى ، ولكن لأننا تعبنا ..

وكانت هذه المعاناة تنتقل إلىّ .. كنت أنا الآخر أعانى ، وأنا احاول أن أفرز إحدى الشخصيتين من الأخرى حتى أتعامل معها .. ولكنى كنت دائماً أفشل ، وأجد الكلمات الفرنسية تقفز على لسانى مختلطة بالكلمات العربية الفصحى ، وبالكلمات الغربية العامية .. وأجد محاولات التفاهم تتردد بين محاولة التفاهم مع عقلية فرنسية ، ومحاولة التفاهم مع عقلية عربية ..

ورغم ذلك كان هناك شىء يشدنى دائما إلى الدار البيضاء .. ربما لأن الضياع لم يفقد المدينة خفة دمها .. وربما لأنى أريد أن اطمئن إلى نهاية المعاناة التى يعانيها الناس .. وربما لأنى كنت احن دائماً إلى سماع أناشيد البربر فى ملهى « الريصانى » .. وربما لأن لى فى المدينة كثيراً من الأصدقاء ، أقربهم إلى قلبى هو صديقى « بوليب » ..

و « بوليب » اسمه فى الأصل « أبو طالب » ولكن الضياع مسخ الاسم فأصبح « بوليب » .. وهو إنسان طويل .. عريض .. قوى .. تضج العافية فى وجنتيه .. وتشع عيناه بذكاء التاجر الشاطر .. وهو يدير شركات تجارية كثيرة ، ويمتلك أكثر من خمسة وعشرين داراً للسينما موزعة فى بلاد المغرب .. ورغم ذلك فهو إنسان طيب ، مرح ، مقبل على الحياة ، يحب أن يخدم الناس ، وتحس أنه يتمتع بخدمتهم ..

وقد التقيت به فى زيارتى الأولى للدار البيضاء منذ تسع أو عشر سنوات ، وكان يرتدى الزى المغربى .. الجلباب المعروف والطربوش الوطنى والمركوب الأبيض .. وأصر يومها على أن يدعونى للغداء فى بيته .. واعتقدت أن إصراره يرجع إلى أنه التقى بى فى صحبة أحد وزراء المغرب ، أو لأن دور السينما التى يملكها سبق أن عرضت أفلاماً عربية مأخوذة عن قصصى ، ولكنى بعد أن عرفته تبينت أنه كريم بطبعه ، وأنه بطبعه يحب الناس ويسعى وراء كل صداقة جديدة ..

وبهرت عندما دخلت بيت بوليب لأول مرة .. لقد استقبلنى فى بهو كبير على الطراز العربى الذى يرجع إلى أيام الأندلس .. تتوسطه نافورة صغيرة من الرخام المحلى بالفسيفساء .. والجدران كلها مغطاة بالرخام ومنقوش عليها بالميناء الزرقاء أبيات من الشعر القديم ، والسقف عال تتوسطه قبة محلاة بالزجاج الملون ، يعكس ظلالا هادئة مريحة ، حمراء ، وخضراء ، تكسو البهو كله .. وحول الجدران أرائك حريرية عريضة تنتثر عليها وسائد من ريش النعام .. وما كدت أجلس على إحداها حتى « غطست » كأنى أغطس فى قطعة من السحاب ..

وبوليب فى زيه الوطنى الفضفاض ومركوبه الأبيض .. ثم جاءت السيدة زوجته .. وأحسست برموشى تهتز بسرعة فوق عينى كأنى أحاول أن أفيق من حلم أسطورة من أساطير الأندلس .. إنها سمراء ، رقيقة القد ، دقيقة الملامح ، تكاد ملامحها تختفى فى ظل عينيها المكحلتين الهادئتين .. وشعرها ينساب على رأسها ويرقد على كتفيها فى دعة كأنه قط أسود أليف يقبل عنق صاحبته .. وكانت ترتدى القفطان المغربى الرائع .. أزرق فى لون السماء الصافية ، موشى بخيوط الفضة ، وحول وسطها حزام من الذهب تتوسطه ياقوتة حرة حمراء ، وفوق القفطان « ديفينا » من الحرير الشفاف أشبه بغلالة من نسيج النسيم .. إنها حلم .. حلم الملك شهريار .. أسطورة تنطلق من بين صفحات ألف ليلة وليلة .. وقد جاء معها ولداها « سى أحمد » و « سى المهدى » .. يرتديان أيضاً الزى المغربى والمركوب الأبيض ..

سى أحمد فى الرابعة عشرة من عمره .. وسى المهدى فى الثانية عشرة و « سى » يطلقونها للتدليل ، كما يطلقونها للإكبار .

وعانيت صعوبة وأنا أحاول أن أقوم من « غطستى » بين وسائد الريش ، لأصافح زوجة بوليب وولديه .. ومدت لى يداً ناعمة رخية .. ومد كل من سى أحمد ، وسى المهدى يداً ثابتة قوية فيها اعتزاز أكبر من عمرهما ..

وعدنا نغطس فى وسائد الحرير .. وزوجة بوليب قليلة الكلام .. وولداه صامتان .. كأن العائلة كلها قد وهبت عقولها وألسنتها لرب الأسرة .. لبوليب .. وبوليب يبذل مجهوداً كبيراً وهو يحدثنى حتى يخلص لسانه من الكلمات الفرنسية ، ويبذل مجهوداً أكبر حتى يحدثنى باللهجة المصرية .. وأنا معه أبذل نفس

المجهود حتى أنتقى الكلمات التى يسهل عليه فهمها ..

ثم جاء الغداء على صينية فضية كبيرة ، وضعت أمامنا على حامل من خشب الأبنوس المطعم بالصدف .. خروف صغير مشوى ، على تل من « الكسكسى » .. وحول دائر الصينية أطباق مختلفة من الخضروات ، والسلاطة وأصناف الصلصة التى تضاف إلى الكسكسى ، وكوبات أنيقة ممتلئة باللبن المضروب .. وبدأنا نأكل على الطريقة المغربية .. بأصابعنا . ولم أر فى حياتى أرشق ولا أرق من أصابع زوجة بوليب ، وهى تمتد برفق وخفر لتنتزع قطعة من لحم الخروف ، أو لترفع حفنة من السلاطة .. كأنها كانت تستأذن الخروف قبل أن تنزع لحمه ، وكأنها كانت ترفع السلاطة لتصنع منها باقة تزين بها صدرها ..

وانتهينا من الغداء .. وحديثنا ممتع ، وضحكاتنا هادئة .. ثم جاءت فتاة تحمل إبريقاً من الفضة ، وخلفها خادم يحمل وعاء من الفضة أيضاً وصبت الفتاة الماء على يدى ، فى رفق ، وناولتنى منشفة .. ثم جاء الشاى .. الشاى الأخضر .. كم كوباً شربت .. ربما ثلاثة أو أربعة .. وأنا سعيد مرتخ .. لم أعد أريد شيئا إلا أن أبقى هكذا .. فى هذا الجو العبقرى ، وحولى بوليب وعائلته فى أزيائهم الوطنية الرائعة ، وآدابهم العربية الراقية ..

وتوطدت الصداقة بعد ذلك بينى وبين بوليب .. وأسرنى بخدماته .. كنت أخرج فى الصباح من فندق « مرحبا » لأذهب إلى مكتبه .. وهو الذى يتولى إرسال برقياتى ، وإعداد تنقلاتى ، وتحويل نقودى ، وتحديد مواعيدى ، ويرسل سكرتيره معى إلى السوق ليساعدنى فى مشترياتى .. أصبح بوليب هو كل شىء فى الدار البيضاء ..

وغادرت الدار البيضاء بعد زيارتى الأولى لها وأنا أحمل بوليب وزوجة بوليب فى قلبى ..

ولم نتراسل .. ولكنى كنت أنتظر دائما أن يزور القاهرة لأرد له بعض جمائله .. ولكنه لم يأت إلى القاهرة أبدا ..

●●●

وبعد عامين ، هبطت الدار البيضاء مرة ثانية وأنا فى طريق عودتى إلى القاهرة عائدا من جمهورية مالى .. وما كدت أدخل غرفتى فى فندق « مرحبا » ، حتى رفعت سماعة التليفون وطلبت بوليب .. وسمعت صوته يقول فى حزم رجل الأعمال :

– من ؟

قلت ضاحكاً :

– حاول أن تتذكر ..

قال فى عجلة كأنه لا يطيق الهذر :

– أرجوك .. من ؟

قلت وأنا لا أزال أضحك :

– نسيتنى يا بوليب ؟!

وفجأة صرخ مهللاً :

– إحسان ..

ثم انطلقت الكلمات الفرنسية مختلطة بالعربية المغربية وبالعربية المصرية ، ترحب بى .. ولم أفهم نصف كلامه ، ولكنى فهمت أنه يعدنى بأن يمر علىّ فى الفندق فى المساء ..

وانتظرته فى بهو الفندق ..

وجاء ..

ولم أعرفه لأول وهلة .

كان يرتدى الملابس الإفرنجية .. أنيقاً .. أناقة متعمدة ، مبالغ فيها .. وكان يسير منفوشاً كما لم أتعوده ، وفى ذراعه سيدة شقراء جميلة ، لفت أعناق كل من فى الفندق ..

ووقفت أمامه وابتسامتى حائرة على شفتى كأنى ما زلت أتساءل : هل هذا هو صديقى بوليب .. وقطع علىّ بوليب حيرتى بأن شدنى إليه واحتضننى وهو يهلل مرحباً .. ثم قدمنى إلى السيدة التى معه قائلاً بالفرنسية :

– مدام بوليب ..

وتوقفت يدى الممدودة وهى فى منتصف الطريق إليها ، والتفت إليه فى دهشة حادة ، كأنى صعقت ، ورد بوليب على دهشتى ضاحكاً :

– تزوجنا من ثمانية أشهر .. إننا ما زلنا فى شهر العسل ..

ثم لف ذراعه حول كتفيها وجذبها إليه قائلا :

– أليس كذلك يا حبيبتى !

وأكملت يدى طريقها إلى يدها ، وصافحتها قائلا بنصف ابتسامة :

– تشرفنا ..

وصافحتنى بعينين جريئتين قائلة فى لهجة باريسية صميمة وهى تضغط على يدى :

– بوليب حدثنى عنك ..

وجلسنا حول مائدة فى بهو الفندق وطلب بوليب ثلاثة من كئوس المارتينى .. وأخذت أرتشف كأسى ، وعيناى تتسللان إلى الزوجة الجديدة .. إنها جميلة فعلاً .. ولكنه جمال صريح مكشوف ، كهذا الجمال الذى تراه على صفحات مجلات الأزياء

الفرنسية .. وهى أنيقة .. ربما كان الثوب الذى ترتديه هو آخر صيحة صاحبتها باريس .. أناقة جريئة .. وربما كانت أناقة جديدة عليها ، وقد شعرت بذلك لكثرة المجوهرات التى تتحلى بها .. خاتم سولتير .. وسولتير آخر فى اليد الأخرى .. ودبلة من فصوص الماس « الباجت » .. ودبوس من الماس على كتفها .. ودبوس آخر فى شعرها .. وعقد من اللؤلؤ .. وسوار من اللؤلؤ المزين بحبات الماس .. كأنها فترينة محل « كارتييه » جواهرجى باريس المعروف .. والتفت إلى بوليب كأنى أسأله : كم دفعت فى كل ذلك .. ولكن بوليب كان مشغولاً عنى بالتهام زوجته بعينيه كأنه « يمز » بها بين رشفات كأس المارتينى .. ووجدت نفسى أتساءل: ما الذى يجعل رجلا مثل بوليب يتخذ زوجة أخرى ؟!.. ربما لأنه غنى ، والغنى يغرى صاحبه بالنساء ، كما يغرى به النساء .. ولكن لماذا اختارها زوجة فرنسية ؟.. ولم أحاول أن أناقش هذا التساؤل من ناحية القومية العربية .. فمعرفتى ببوليب دلتنى على أن إحساسه بالقومية العربية لا وجود له ، ولكنه يحس بإسلاميته ، والعواطف التى تفرقه عن الفرنسيين هى عواطف دينية وليست عواطف قومية .. كالعواطف التى بين الكاثوليك والبروتستانت .. بل أقل حدة ، لأن إحساس بوليب بإسلاميته إحساس ضعيف .. إحساس التاجر الذى يعرف الله فى حدود رواج تجارته أو كسادها .. ولكنى حاولت أن أناقش تساؤلى من الناحية الإنسانية .. إنسانية بوليب وذوقه كإنسان .. ما الذى يجعل إنساناً يعيش فى هذا الجو العبقرى الذى لمسته فى بيت بوليب ومع هذه الزوجة المغربية الرائعة التى تمتاز بهذا الجمال السحرى الذى يحمل فى ثناياه أكثر مما يبدو منه .. ما الذى يجعل

هذا الإنسان يترك كل ذلك ليجلس حول مائدة مكشوفة مع جمال مكشوف تنتهكه كله فى نظرة واحدة ، ليتناول كئوس المارتينى بدلا من كئوس اللبن المضروب ؟!..

وأحسست كأنى أهز رأسى إشفاقاً على بوليب ..

ونزعنى من خواطرى صوت الزوجة الجديدة .. إنها تحتكر الحديث كله لها .. وتتحدث فى مواضيع جريئة .. وعيناها تتحدثان معها ، ويداها .. وكل قطعة من جسدها تشترك معها فى الحديث .. والحديث كله باللغة الفرنسية ، لا تقفز فيه كلمة عربية واحدة .. وبوليب يكتفى بالضحك ، والتعليقات العابرة .. وبدأت تشكو فى حديثها من غيرة زوجها عليها .. وتروى نوادر عن هذه الغيرة .. وأنا أعتقد أن الزوجة عندما تحدث صديقاً عن غيرة زوجها فكأنها تغريه بأن يشترك معها فى إثارة غيرته .. فبدأت أحترس .. ولكن احتراسى لم يمنع من رفع الكلفة بينى وبينها منذ الجلسة الأولى .. وسمعتها تنادينى باسمى مجرداً ، ووجدت نفسى أناديها باسمها .. مونيك .. رغم أنى لا أعرف اسم الزوجة الأولى .. المغربية .. حتى اليوم ..

واقترحت مونيك أن نذهب لقضاء السهرة فى ملهى الـ « بلكون » .. وقمنا وركبنا سيارة بوليب « الستروين » الكبيرة .. جلس بوليب فى مكان القيادة ، وجلست مونيك بجانبه ، وأفسحت لى مكاناً لأجلس بجانبها .. ولكنى اعتذرت وأصررت على أن أجلس فى المقعد الخلفى .. لا تأدباً منى ولكن لأنى خفت .. خفت من مونيك .. خيل إلىّ أنى لو التصقت بها ، فسأحترق ..

والـ « بلكون » .. علبة من علب الليل ، أقيمت على شاطىء البحر ، على الطراز المكسيكى ، تضج فيه موسيقى « الستريو »

بلا توقف .. خافتة الضوء معبأة بالدخان ورائحة النبيذ ، تلتصق فيها الأجساد حتى تذوب فى جسد واحد ..

وبصعوبة وجدنا وسط الزحام والظلام جزءاً من مائدة نجلس حوله .. وبدأت مونيك تهز قدميها على نغمات التشاتشا .. ثم بدأت تنظر إلىّ ، بعينيها الجريئتين .. وتعمدت أن أتجاهل نظرتها .. إلى أن قالت لى :

– قم .. ارقص ..

قلت كاذباً :

– آسف .. لا أعرف الرقص ..

كنت لا أزال أخاف الالتصاق بها حتى لا أحترق ..

وقالت مونيك كأنها تستخف بى :

– ألا ترقصون فى مصر ؟

قلت :

– ليس كلنا ..

وقبل أن أتم كلامى ، كان بوليب قد قام وجذب مونيك إلى حلبة الرقص .. وجلست أرقبه وهو يرقص التشاتشا كأنه فيل يرقص على نغمات الطبل البلدى .. وضاعت من خيالى كل شخصية بوليب .. ضاع الرجل المغربى .. والجلباب الواسع .. والطربوش الوطنى .. والمركوب الأبيض ..

وعاد بوليب وخبط على كتفى قائلا :

– ألا تستطيع حقاً أن ترقص ؟

قلت :

– لا ..

قال وهو ينظر إلىّ كأنه يشفق علىّ :

– لا أحد فى عالم اليوم لا يرقص ..

وخيل إلىّ أنه كان سـعيداً وأنه أحبنى أكثـر لأنى لم أكن ليلتها أرقص .. ثم ما لبث أن أخـذ زوجته وقام يرقص بهـا مرة ثانية .. وهى تتلوى أمـامـه فى جرأة .. وتـتبـادل الصـرخات مـع بقيـة الراقـصين .. والدخـان يحرق عـينى ، ورائحـة النبيـذ تطبق على صدرى .. فأخرجت قلمى وكتبت على قطعة من الورق : « تعبت .. وذهبت » .. وتركت الورقـة أمـام مـقـعد بوليـب ، ثم تسللت إلى خارج علبة الليل .. وتركت بوليب وزوجته يرقصان ..

وعدت إلى غرفتى ..

وفى الصباح التالى فى حوالى السـاعة الحادية عشرة ، ذهبت إلى مكتب بوليب .. وفـوجئت عندمـا لم أجده هناك .. لقـد عودنى بوليب أن يكون فى مكتبـه فى الساعة الثامنة على الأكـثر ، وكان يعيب علىّ كسلى عندما أحدد له موعداً فى العاشرة ..

وجلست مع سكرتيره سى عبد الله ، أسأله :

– أين بوليب ؟

وهز كتفيه بلا مبالاة قائلاً :

– لعله لا يزال نائماً ..

قلت :

– ولكنها ليست عادته ..

قال فى أسى :

– لقد تغير بوليب ..

وسكتنا معاً كأنهـا وقفـة حداد على ذكرى بولـيب .. ثم عدت أسأل سى عبد الله :

– عفواً .. هل طلق زوجته الأولى ؟

قال وهو يتنهد فى أسى :

– لا .. إنها فى بيتها مع أولادها .

●●●

ومر عامان .. ربما ثلاثة ..

وعدت إلى الدار البيضاء ..

وجاء بوليب ليـرحب بى فى الفندق بعد أن عـرف بوصولى .. جاء وحده ، مـرتديا الزى الإفرنجى ، أنيقاً كما رأيتـه آخر مرة .. ولكنى منذ الوهلة الأولى أحسست أنه تغير .. إنـه يبدو مهموما .. انطفأت لمعة عيـنيه .. وخبا المرح على وجنتيه .. وذابت ابتـسامته بين شفتيه .. ويتكلم فى تكاسل وقرف ، ولا يبذل مجهوداً لينتقى لى الكلمات التى تساعدنى على فهمـه .. لا يبدو كأنه يهتم بفهمى له ..

ولم تطل زيارته لى .. قـام سـريعـاً لينصرف بـعد أن دعـانى للغداء مـعه فى اليـوم التالى .. دون أن يعرض علـىّ خدماته كـما عودنى .. وعندما أعطيتـه ما معى من جنيهات استرلينيـة ليحولها لى بسعر السوق السوداء .. أخـذها بلا حماس .. رغم أنه تعود أن يصرخ فى وجهى كلما حـاولت أن أبدل نقوداً بالطريق الرسمى ..

وقال وهو يدس النقود فى جيب سترته الخارجى :

– سأرسل لك قيمتها مع عبد الله .

وانصرف وأنا أتتبعه بعينى .. إنه يسـير وكتفاه منهارتان كأنه كبر عشر سنوات فى عامين ..

وعندما جاء سى عبد الله ليرد إلىّ النقود .. سألته فى لهفة :

– ماذا جرى لبوليب .. إنه يبدو بائساً ؟

قال فى قرف :

– إنها مونيك .. إنها تتعس أيامه ..

قلت :

– ولماذا تتعسه .. إنى واثق أنه يدللها أكثر مما تستحقه من دلال ؟

قال :

– إنها الزوجة الثانية ..

قلت :

– تقصد أنها تغار من زوجته الأولى ..

قال :

– لا .. الزوجة الأولى أمرها سهل .. ولكنها تغار من أولاده .. الأولاد وحدهم هم الذين كانوا يأخذونه منها ، لقد أخذته كله ما عدا حبه لأولاده .. وهى لم تنجب منه حتى تستطيع أن تعوضه عن أولاده من الزوجة الأولى بأولادها .. إنها عاقر .. أتدرى ماذا فعلت .. لقد أخذت أولاده .. أخذت سى أحمد وسى المهدى ليعيشا معها .. حتى تكمل لها السيطرة عليه ..

قلت فى دهشة :

– وهل رضى بوليب أن يأخذ الولدين من أمهما ليعيشا مع امرأة غريبة ؟

قال وهو يلوى شفتيه :

– لقد اقتنع بأن مونيك أكثر ثقافة من زوجته الأولى ، وأقدر على تربية أولاده ..

قلت :

– إنه مجنون ..

قال :

– إنه ضعيف ..

وفى اليوم التالى ذهبت لتناول الغداء فى بيت بوليب .. بيت زوجته الفرنسية .. إنه بيت فخم .. كل قطعة فيه تساوى ثروة .. ولكنه بيت بلا شخصية .. ركن منه أثث على الطراز المغربى .. وركن آخر أثث على طراز لويس الخامس عشر .. وهنا قطعة من الأثاث الصينى .. وهنا تمثال هندى .. إنه يبدو كبيت رحالة حمل فى كل رحلة قطعة يزين بها بيته .. أو يبدو كدكان عاديات ..

واستقبلنى بوليب وهو مرتد الزى الإفرنجى ، وجلسنا على مقاعد لويس الخامس عشر .. ثم جاءت مونيك .. جاءت مرتدية الزى المغربى .. قفطان أحمر محلى بخيوط الذهب ، وحول وسطها حزام ذهب محلى بالجواهر .. ولم يؤثر فىّ الزى المغربى هذه المرة .. إنى بمجرد أن نظرت إلى شعر مونيك الأصفر ، وعينيها الحريريتين ، أحسست أن القفطان المغربى ، فستان سواريه استورد من باريس .. أكثر من ذلك ، خيل إلىّ أن مونيك ستقوم بين دقيقة وأخرى ، وتخلع القفطان وهى ترقص رقصة « الاستبرتيز » التى تقوم فيها الراقصة بخلع ثيابها حتى تبدو عارية .

وبوليب لا يزال تعيساً مهموماً ، كتفاه منهارتان ، ولا يتكلم كثيراً .. مونيك هى التى تتكلم دائما ..

وقمنا وجلسنا حول مائدة « أمبير » أى على الطراز الامبراطورى الضخم .. وأمام كل منا مجموعة من الشوك والسكاكين والملاعق والكئوس .. وكان الطعام مغربياً .. كسكسى باللحم والخضروات .. ولكنى عندما أكلت الكسكسى بالطريقة الأوربية .. أحسست أن طعمه تغير .. أصبح كطعم الأرز الفرنسى ..

ولم يجلس سى أحمد وسى المهدى معنا لتناول الغداء ، ولكنهما جاءا بعد الغداء .. إن قامتيهما طالتا .. سى أحمد الآن تجاوز السادسة عشرة .. وعلى وجهيهما تعابير جامدة ، وفى عيونهما نظرات حادة ..

وصافحانى فى قوة ورجولة ..

وحدجا مونيك بنظراتهما الحادة ..

ولم يلتفتا إلى أبيهما ..

وجلسا صامتين ، كل منهما ينظر إلى قدميه ، إلى أن التفتت مونيك إليهما وقالت بلهجة آمرة :

– أظن حان وقت المذاكرة ..

ولم يردا عليها .. قاما فى صمت ، وعادا يصافحاننى فى قوة ورجولة .

وقلت لهما :

– أرجو أن أراكما قريباً فى مصر .

وقال سى المهدى باللهجة المغربية :

– إن أراد الله ..

ونظر سى أحمد ـ الأخ الأكبر ـ فى وجهى بعينين ثابتتين ، وقال فى حزم :

– سترانا فى مصر .. مؤكد أننا سنذهب إلى مصر ..

وأخذتنى اللهجة القوية التى تكلم بها ..

واستأذنت بعدهما بوقت قصير ، وخرجت من بيت بوليب ، وأنا مقبوض الصدر ..

وبعد يومين كنت فى مكتب بوليب ، وأخذنى سى عبد الله من ذراعى وانتحى بى ركناً ، وهمس فى أذنى وعيناه تضحكان

ضحكة كبيرة ، وشفتاه تبتسمان ابتسامة أكبر :

– أتدرى ماذا حدث .. لقد ضرب سى أحمد وسى المهدى زوجة أبيهما ، ضرباً مبرحاً .. سلمت أيديهما .. إنهما رجال .. سى أحمد وسى المهدى ..

قلت فى دهشة :

– ضرباها .. لماذا ؟

قال ضاحكاً :

– لأن إنساناً ما ، كان يجب أن يضربها منذ زمان طويل ..

قلت :

– وماذا فعل بوليب ؟..

قال :

– لقد أعاد الولدين إلى أمهما ..

قلت :

– وماذا فعلت مونيك ؟..

قال ضاحكاً :

– إنها تصرخ وتولول منذ نهار أمس .. أتدرى ماذا تريد الآن ؟.. إنها تريد أن ترسل الأولاد إلى مدرسة داخلية فى فرنسا ، حتى لا يراهما أبوهما .. وبحجة أن يتعلما هناك الأدب ..

قلت :

– وهل وافق بوليب ؟..

قال :

– العائلة هائجة فى وجهه .. عائلة زوجته الأولى .. وسى أحمد وسى المهدى رفضا الفكرة ، وهددا بالهرب .. وبوليب نفسه ليس مقتنعاً بها ..

وامتلأ قلبى بالأسى حزناً على بوليب .

●●●

وعدت إلى الدار البيضاء منذ بضعة شهور .. أى بعد ثلاث سنوات من زيارتى الأخيرة لها .. واتصلت ببوليب فى مكتبه .. ورد على سى عبد الله ، وقال لى إن بوليب مريض فى بيته ، وإنه سيبلغه بخبر وصولى ..

وبعد قليل عاد سى عبد الله واتصل بى ، وقال لى إن بوليب يدعونى لتناول الشاى معه ، وإنه ـ أى سى عبد الله ـ سيمر علىّ بعد نصف ساعة ليصحبنى إلى هناك ..

وفى الطريق أخذت أسأل سى عبد الله عن أحوال البلد وأحوال العائلة وأجلت سؤالى عن مونيك ، لأنى أعلم أنه يكرهها ، ولم أرد أن أظهر له اهتمامى بها .. وأخيراً سألته :

– وكيف حال مونيك ؟

وأجاب بلا مبالاة :

– ماتت ..

والتفت إليه وصحت فى دهشة :

– ماتت ؟ كيف ؟!..

قال وهو لا ينظر إلىّ :

– كلنا سنموت يوماً ..

قلت :

– ولكنها شابة !؟

قال :

– حتى الشبان يموتون ..

وسكت كأنى أترحم على مونيك ..

وزم سى عبد الله شفتيه ، كأنه قرر ألا يعود إلى الحديث عنها .. وبدأ يسألنى عن أخبار رحلتى وأحوال مصر حتى يغير مجرى الحديث .. ولكنى بعد فترة سألته فجأة :

– ماذا جرى لبوليب بعد موت مونيك ؟

والتفت إلىّ سى عبد الله وقال بحدة كأنه يبعد شبحاً يخاف أن يطوف بى :

– لا أحد يستطيع أن يمس بوليب إنه صاحب نفوذ فى جميع الدوائر .. والناس كلهم يحبونه و ..

وسكت عن كلامه مرة واحدة ، كأنه تنبه إلى أنه قال كلاماً أكثر مما يجب أن يقول ..

واحترت ..

احترت فى موت مونيك ..

كيف ماتت ؟!.

وعبثاً حاولت أن أقنع سى عبد الله بالكلام ..

ووصلنا إلى بيت بوليب ..

البيت الذى زرته فيه عندما التقيت به لأول مرة .. البيت المغربى .. وأدرت عينى فى البهو الفخم .. كأنى أقبل النافورة التى أوحشتنى ، والجدران الرخامية المذهبة .. والسقف ذا الزجاج الملون ..

واستقبلنى بوليب بالزى الوطنى .. الجلباب المغربى .. والطربوش الأحمر .. والمركوب الأبيض .. ومد لى يده اليسرى يصافحنى بها ..

إن يده اليمنى ترتعش ..

إنها يد مشلولة ..

وعلى شفتيه ابتسامة هادئة حزينة .. ابتسامة رجل أدى واجبه وانتهى ..

وغطسنا فى الوسائد الحريرية ..

وترددت .. هل أعزيه فى مونيك .. أم أدعى أنى لم أسمع بخبر موتها إلى أن يذكره لى ..

وفضلت أن أسكت .. وتكلم بوليب .. ولسانه ثقيل كأنه ينزع الكلمات من بئر عميقة ..

تكلم طويلاً ..

ولم يذكر شيئاً عن مونيك ..

ولكنى كنت كلما وقعت عينى على يد بوليب المرتعشة خيل إلىّ أنى أرى جثة مونيك ترتعش فى قبرها ..

وجاء سى أحمد وسى المهدى .. إنهما الآن رجلان .. سى أحمد فى حوالى العشرين من عمره .. وكلاهما مرفوع الرأس .. تشتعل ملامح وجهه بجمال القوة والحماس .. وعيونهما تنطلق فى ومضات كأنها طلقات الرصاص .. ربما كانت رصاصة منها هى التى قتلت مونيك ..

وتكلم سى أحمد طول الوقت .. تحدث فى عربية أكثر وضوحاً من عربية أبيه .. وهو الآن يعمل فى مكان والده ، وكان يحدثنى عن المتاعب التى يلقاها فى التبادل التجارى مع مصر .. وقال بحماس :

– إنكم تتحدثون كثيراً عن الوحدة العربية .. وتعتقدون أن السياسة هى التى ستوحد البلاد العربية ، وأنا أقول إنها التجارة .. لن يوحد البلاد العربية إلا فتح أبواب التجارة بينها .. تصور .. إن أسهل علينا ألف مرة أن نتاجر مع فرنسا اليوم من

أن نتاجر مع مصر .. هل هذا كلام .. تعقيدات ، وحواجز ، ثم نقول وحدة .

وكان يتكلم وعيناى تقعان بين الحين والحين على يد بوليب المرتعشة ..

وجاءت الزوجة المغربية الرائعة مع صينية الشاى .. فى ثوبها المغربى الرائع .. وخيل إلىّ أنها أكثر جمالاً ، وأكثر شباباً ، وأكثر دعة ، عما رأيتها أول مرة منذ أكثر من سبع سنوات .. وشعرها الأسود مسترسل فوق رأسها راقد فوق كتفيها كالقط الأليف ..

●●●

وغادرت الدار البيضاء ..

ويد بوليب المرتعشة لا تزال تملأ خيالى .. والرجولة القوية تنطلق من عيون سى أحمد وسى المهدى .. والجمال والدعة تحملهما الزوجة والأم المغربية ..

وموت مونيك يحيرنى ..

السويد

طلاق الشاب الطويل الأسمر..

أنا الوحيد الذى كنت أنتظر طلاق صديقى عبد الله رفعت بين كل يوم وآخر .. كان كل الناس فى القاهرة يلفونه بنظرات الحسد ، ويشهقون كلما رأوه بصحبة زوجته ، والنساء تتنهد فى حسرة .. ورغم ذلك .. كنت أنتظر طلاقه بين كل يوم وآخر .. ربما لأنى كنت الوحيد الذى حضر يوم زواجه ..

وقد عرفت عبد الله فى القاهرة .. عرفته من بعيد .. شاب طويل أسمر ، شعره أكرت قصير .. وربما لم يكن جميلاً ، ولا وسيما ، ولكن ملامحه جذابة ، تشدك إليه .. عيناه فرعونيتان قلقتان فى قلقهما جرأة واندفاع .. وأنفه فخم يتربع على وجهه كأنه عرش سليمان .. وشفتاه مكتنزتان غامقتان تشعان بالحيوية والنهم .. ويعتنى اعتناء خاصاً بثيابه ، وينتقى منها هذا الطراز الذى يبرز قوامه المشوق الطويل .. البنطلون الضيق الساقين ، والسترة المشقوقة الجانبين التى تلف خصره لفاً محكماً ..

ورغم أن ملامحه تجذبك إليه ، إلا أن الذى يراه من بعيد قد يحكم عليه لفرط أناقته ، ولمشيته المرسومة الخطوات ، وحركاته المهذبة المبالغ فيها .. قد يحكم عليه بأنه من هذا الصنف من الشبان الفارغين الذين يسفحون كل ذكائهم تحت أقدام البنات .. وكان هذا هو حكمى عليه وأنا أراه من بعيد .. فى نادى الجزيرة ،

وفى الملاهى الليلية .. وفى الفنادق الكبرى .. وأصبحنا من كثرة ما التقت نظراتنا ، يحيى أحدنا الآخر بلا ترحيب ، كأن كلاً منا يتقى شر الآخر ..

إلى أن عرفته عن قرب ..

●●●

كنت فى مطار روما أستقل الطائرة إلى استكهولم ..

وما كدت أدخل الطائرة حتى لمحته .. عبد الله رفعت .. جالساً وبجواره مقعد خال ، جلست فيه وأنا أحييه بتحفظ ولكنه رد تحيتى بفرحة وترحاب كبير ، كأنى أنقذته من وحدته وزهقه .. وأهل البلد الواحد عندما يلتقون فى الخارج ، تتوطد بينهم الصداقة ويتصل بينهم الحب بسرعة .. فى لحظة .. كأنهم ولدوا من أم واحدة ..

وعرفت منه أنه قادم من القاهرة فى طريقه إلى استكهولم أيضاً ، مندوباً عن إحدى المؤسسات التجارية لفتح أسواق للفاكهة والخضر المصرية .. وتحدثنا قليلاً عن مصاعب تسويق الخضر والفاكهة .. منافسة إسرائيل .. سوء التغليف .. الروتين الحكومى .. « الحداقة » المصرية التى تتصور أنها تستطيع أن تخدع أى زبون .. و .. ولكن هذا الحديث لم يستغرق منا سوى دقائق .. ثم أدار عبد الله الحديث بلباقة إلى موضوع البنات .. بنات السويد ..

والتمعت عينا عبد الله وهو يسألنى فى لهفة عن بنات السويد .. لقد رسم صورة لهن فى خياله ، ورسم صورة لنفسه بينهن ، وكان من المستحيل ـ وهو يزور استكهولم لأول مرة ـ أن يتنازل عن هذه الصور .. خيل إلىّ أنه عاش عمره كله يحلم ببنات السويد .. كلهن جميلات .. وكلهن شقراوات .. وكلهن منحلات ..

لا مبادىء ولا حدود للعلاقات الجنسية .. وكلهن يعشقن الشاب الطويل الأسمر .. يكفى أن يكون الشاب أسمر أكرت الشعر لتتهافت عليه كل البنات .. وعبد الله يعرف فى نفسه أنه أسمر ، وطويل ، وشعره أكرت .. فلا بد أن بنات السويد سيتهافتن عليه .. سيتخاطفنه .. ربما قامت معارك نسائية من أجله .. ربما انتحرت البنات لهفة عليه .. و .. و .. وقد تمكنت هذه الصورة من خياله ، إلى حد أنه كان يتوقع بمجرد أن يهبط من الطائرة فى مطار استكهولم أن ترتمى بين أحضانه عشرات النساء ، وكانت المشكلة التى ستواجهه ـ كما يتصورها ـ هى كيف يستطيع أن يرضى كل هذا العدد من النساء ، وكيف يرضى نفسه بهن ..

واستطعت أن أستشف هذا الخيال الساذج الذى يطوى عبد الله ، من لهفته ونهمه فى استزادة معلوماته عن بنات السويد .. ومن تعليقاته العابرة .. ومن لمعة عينيه .. ومن حركاته التى تفضح إعجابه بنفسه ، وبسمرته ، وطول قامته ..

وقلت له كأنى أصدمه فى خياله :

ـ ليس كل بنات السويد شقراوات ، كثيرات منهن ذوات شعر أسود ..

ونظر إلىّ كأنه لا يصدقنى ، ثم قال فى لهجة يحاول أن تكون وقورة :

ـ على كل حال ، إن ما يسمونه حرية الحب فى السويد ، ليس فى نظرى سوى الانحلال الخلقى ..

قلت :

ـ لا .. إن معنى الانحلال ليس له وجود فى السويد .. الانحلال هو أن تنحل من تقاليد المجتمع الذى تعيش فيه ..

« حرية الحب » هى تقاليد المجتمع السويدى ، وليست تحدياً له أو انحلالاً منه ..

وحرية الحب ليس معناها الفوضى الجنسية ، ولكنها تعنى حرية الإرادة .. فكل بنت حرة فى إرادتها وكل ولد حر فى إرادته ، فإذا اجتمعت إرادتهما على أن تقوم علاقة بينهما .. فلا أحد يعترض .. ولا يعتبر اجتماع إرادتهما انحلالاً ..

قال وهو ينظر إلىّ كأنه لا يفهمنى :

ـ على كل حال ، إذا كان لهذا المذهب فضيلة ، فهو أنه يريح المجتمع من البغاء أو الدعارة ..

قلت كأنى أعانده :

ـ لا .. الدعارة ليست مظهراً من مظاهر الكبت ، ولكنها مظهر من مظاهر الفقر .. إن المرأة التى تحترف البغاء ليست امرأة مكبوتة فى حاجة إلى رجل ، ولكنها امرأة فقيرة فى حاجة إلى مال .. والبغاء لا تتوافر فيه الإرادة الحرة التى تقوم عليها حرية الحب .. الرجل قد يذهب إلى المرأة البغى وهو حر الإرادة ، ولكن المرأة تذهب إليه وهى مسلوبة الإرادة ، تذهب إليه مسوقة بضربات سياط الفقر .. وليس فى السويد بغاء ، لا علنى ولا سرى . لا لأن السويد تؤمن بحرية الحب ، ولكن لأن السويد من أغنى بلاد العالم بالنسبة لعدد سكانها .. ليس فيها فقراء .. ليس فيها امرأة فقيرة حتى تحترف البغاء ..

قال وهو لا يزال ينظر فى وجهى بعينيه الواسعتين الجريئتين كأنه يحاول أن يفهمنى :

ـ كأنك تدافع عن « حرية الحب »؟

قلت :

ـ أنا لا أومن بحرية الحب ، ولا أومن أيضاً بالبغاء ..

و « حرية الحب » إذا كانت قد أصبحت جزءاً من تقاليد السويد ، فلأن السويد كدولة وكمجتمع قادرة على أن تتحمل نتائج هذه التقاليد .. الأولاد مثلا .. خصوصاً الأولاد غير الشرعيين .. أولاد الحب الحر .. إن حكومة السويد تتكفل بهم منذ أن يولدوا إلى أن يكبروا وتوفر لهم عملا .. لأن السويد كما قلت لك دولة غنية .. مجتمع غنى .. ورغم هذا .. هل تعلم أن نسبة الانتحار فى السويد هى أعلى نسبة فى العالم .. معنى هذا أن شعب السويد هو أتعس شعب فى العالم ..

قال فى دهشة :

– مستحيل .. لماذا ؟!

قلت :

– فى رأيى أن سبب تعاسة السويد أن تقدمها قام على تفكير علمى محض ، لا يسانده إيمان روحى .. والتفكير العلمى وحده لا يكفى لإسعاد البشرية ، كما أن الإيمان الروحى وحده لا يكفى لتقدمها .. السويد كالرجل الغنى الفاحش الغنى .. الذى ينقصه الإيمان .. الإيمان بأى شىء .. ويستطيع بما له أن يرضى جميع حواسه ، ولكن تظل نفسه خاوية .. فارغة .. لا يستطيع أن يرضيها .. فينتحر .. أو يجن .. إن نسبة الانتحار والجنون بين الأغنياء أكثر منها بين الفقراء ..

قال فى سذاجة :

– لا أفهمك ..

قلت :

– إن الفرد فى السويد هو أكثر أفراد العالم كله ضماناً لحياته .. إن دولته تتحمل مسئوليته منذ يولد إلى أن يموت .. وأصبح اعتماده على دولته أكثر من اعتماده على عائلته ، بل أكثر

من اعتماده على نفسه .. ورغم ذلك فلا يربطه بدولته إيمان ما .. ليس له مذهب اجتماعى يدين به ويدافع عنه ويتحمس له .. كل ما حدث أن الدولة غنية ، فوزعت الثروة القومية بتفكير حسابى ، لا بناء على مذهب محدد .. إنها ليست دولة اشتراكية مثلا ، حتى نقول إن الشعب يؤمن بالاشتراكية ، ولكنها دولة خدمات عامة وتأمينات اجتماعية .. رغم أن الخدمات والتأمينات التى تقدمها تفوق كل الخدمات التى تقدمها أى دولة اشتراكية .. النتيجة .. والنتيجة أن الروابط العائلية ضعفت .. أصبح الولد والبنت ينفصل كل منهما عن العائلة بمجرد بلوغه الثامنة عشرة . وتقيم البنت وحدها أو مع صديقة لها ، وكذلك الولد .. والدولة تتكفل بهم .. والإيمان بالله أيضاً ضعف ، لأن لا أحد فى حاجة إلى الله ، فالدولة تغنيه عن الحاجة إليه .. والروابط الفردية بين الناس بعضهم وبعض ضعفت أيضاً .. لأنه ليس هناك إيمان ولا احتياج يربط الأفراد بعضهم وببعض .. فانعزل الناس .. كل فى حجرته يقرأ أو يسمع الموسيقى .. والفراغ الروحى يعذبه .. والوحدة .. وهكذا ارتفعت نسبة الانتحار ..

و .....

واستمرت مناقشاتنا طويلا .. قلت له كل ما عرفته عن السويد خلال زيارتى السابقة لها .. ولكن كل ما قلته لم يستطع أن يغير شيئا من الصورة المرتسمة فى خيال عبد الله .. صورة نفسه وهو مقبل على جنة الشقراوات .. والصورة تملأ خياله إلى حد أنه لم يحاول أن يلتفت إلى المضيفة الهولندية الحسناء ويسلط عليها سحره الشرقى .. ما حاجته إلى الهولنديات وبنات السويد فى انتظاره ..

وكلما اقتربنا ، ازداد نشاط عينيه ولمعت فيهما اللهفة ..

وتلمظت شفتاه وهو يبللهما بلسانه .. ومط عنقه من خلال ياقة قميصه وهو يساوى الكرافتة كأن عينيه تحاولان القفز من نافذة الطائرة لتسبقاه إلى بنات السويد ..

●●●

ووصلنا ..

وكنا فى شهر يونيو .. والجو منعش تسرى فيه موجة ضعيفة من البرد الخفيف كأنها أنامل امرأة رقيقة تدغدغ أعصابك وتنشطها .. ورذاذ المطر يغسل الأرض .. ومطر السويد فى الصيف له رائحة حلوة ، كأن السماء ترش الناس بماء الورد .. ولكن عبد الله لم يفتح صدره لكل هذا الجمال الذى يحيط به .. وقف بجانب الطائرة وقد شد قامته ، ورفع رأسه ، وعلى شفتيه ابتسامة مغرورة ، ومعطفه ملقى على ذراعه ، وعيناه الفرعونيتان منطلقتان كأنهما تبحثان عن شىء كان يجب أن يكون فى انتظاره ..

وتقدمت نحونا مضيفة المطار .. شقراء ، تضج وجنتاها بدماء شبابها .. واتسعت ابتسامة عبد الله ، وشد قامته أكثر ، كأنه رأى فى المضيفة مندوبة اتحاد الشقراوات جاءت لترحب به وتقوده إلى باب الجنة .. ولكن المضيفة لم تلمح عبد الله .. ولا أحست بأهميته بيننا .. وأسرعت إلى سيدة عجوز وحملت عنها حقيبتها ، وسندتها بذراعها ، ثم قادت جميع الركاب بما فيهم عبد الله إلى جمرك المطار ..

وهز عبد الله كتفيه بلا مبالاة .. وظل محتفظاً بقامته المشدودة وابتسامته الكبيرة .. وبدأت عيناه تطوفان بموظفات الجمرك كأنه يقول لكل منهن .. انظرى إلىّ .. إنى طويل أسمر .. وقد جئت من الشرق .. من أفريقيا ..

ولم يتلق أية إجابة على ندائه ..

واقتنع عبد الله بأن يقيم معى فى فندق قريب من المطار ، لأنه أرخص .. على أن نذهب إلى المدينة كل صباح فى المترو ..

وما كاد يدخل غرفته ، حتى اتصل بى فى غرفتى بالتليفون ، وقال :

– أريد أن أذهب إلى المدينة ..

قلت :

– ألا نستريح قليلا ..

قال :

– يجب أن أمر على السفارة حالاً ..

ورضى أن يتركنى إلى أن أستحم وأبدل ثيابى .. ثم لقيته فى بهو الفندق وركبنا المترو إلى المدينة .. وكل شىء حولنا يبهر العين .. خصوصاً عين الغريب .. الأنهار الصغيرة الرقراقة ، وذوب الثلج يرقص على صفحاتها .. وقمم الجبال المغطاة بالثلوج .. والبحيرات الزرقاء .. وقطع السحاب كالقطن المنفوش .. والأشجار الضخمة وهى تعرض نفسها لشمس الصيف بعد أن خلعت معاطف الشتاء .. كل شىء يبهر .. متعة تسرى حتى أخمص قدميك .. ولكن عبد الله لم يحاول أن ينظر حوله .. وقف داخل المترو مشدود القامة ، وسلط عينيه الفرعونيتين على شقراء شابة جالسة تقرأ فى كتاب ، كأنه كان ينتظر بين كل لحظة وأخرى أن ترفع وجهها إليه .. إلى قامته المديدة ولونه الأسمر .. وتشهق .. ثم ترتمى فى أحضانه ..

ولم ترفع الشقراء وجهها إليه .. قامت فى هدوء ونزلت فى إحدى المحطات ..

وأدار عبد الله عينيه ، وسلطهما على شقراء أخرى ..

ولم يحدث شىء ..

ووصلنا إلى دار السفارة فى شارع « ستراند فيدان » .. ورحب بنا موظفوها ورأيت عبد الله ينقلب إلى شخصية أخرى .. شاب جاد مهتم بموضوعه ، يوجه أسئلة دقيقة ، ويسجل عناوين شركات الاستيراد ، وأرقام الإحصاءات .. وعيناه جادتان ، اختفت منهما هذه النظرة الفرعونية المغرورة .. وشفتاه مزمومتان انطفأ فيهما النهم الغريب ، وهذا الخيال المراهق .

ثم ..

ما كدنا نخرج من السفارة ، ونسير على كورنيش خليج الأجونر ، حتى عاد عبد الله إلى شخصيته الأولى .. حاولت أن ألفت نظره إلى جمال الخليج الهادئ ، الراقد على حافة المحيط كأنه يختبئ خوفاً منه .. ولكن عبثاً .. أدار عبد الله عينيه عن الخليج ، وراح يجرى بهما وراء الشقراوات اللاتى يملأن الطريق ، وقد عادت إليه نظرته الفرعونية الجريئة ، وانفرجت شفتاه من النهم وبينهما هذا النداء .. إنى طويل .. أسمر .. وقد جئت إليكم من أفريقيا .. من الشرق !!

وأخذته إلى مطعم فى شارع « كونجز جاتا » .. وعرضت عليه أن نتناول الـ « سمورجس بورد » وهو أشهى وأفخم « أورديفر » فى العالم .. مائدة طويلة عريضة عليها أكثر من مائة صنف من المشهيات تختار منها ما تشاء .. أكثر من خمسين صنفاً من السمك وحده .. وعشرات من أصناف اللحوم .. والسلاطة .. والبطاطس .. و .. و .. وتأكل كما تشاء حتى لو أكلت المائدة كلها ..

واكتشاف أصناف الطعام يعتبر متعة كبيرة عندما تسافر إلى الخارج .. إنى أحس كأنى أكتشف الشعب نفسه [illegible]ن الشعب ..

• طلاق الشاب الطويل الأسمر.. •

وطبيعته .. وفسيولوجيته .. ودرجة مدنيته .. إنك تستطيع أن تعرف الناس مما يأكلون .. وقد أخذت أحدث عبد الله عن أطعمة السويد .. الـ « بلو بودنج » وهو نوع من اللحم المفروم .. وسمك السالمون المدخن ، الذى يعتبر من أرقى الأطعمة فى العالم كله ، والكفيار الروسى و « الكراى فيش » وهو نوع من الجمبرى .. و .. و .. ولكن عبد الله لم يهتم بالـ « سمورجس بورد » .. ولا استمع إلى شىء مما أقول .. ولا تذوق شيئاً مما أكله .. إن كل حواسه كانت مركزة فى عينيه .. يطوف بهما على الشقراوات .. وفى كل عين سنارة تحاول أن تصطاد واحدة منهن .

ولم يصطد شيئاً ..

وخرجنا عائدين إلى الفندق .. وهو صامت متبرم .. لا يريد أن يفصح لى عن سبب تبرمه .. ولم أكن فى حاجة إلى أن يفصح لى .. كنت أعرف سبب تبرمه ..

وفى الصباح التالى لبس عبد الله شخصيته الأخرى .. الشخصية الجادة النشطة العاملة .. وتركنى ليطوف ببعض مكاتب شركات استيراد الخضر والفاكهة ، بعد أن تواعدنا على اللقاء لتناول الغداء معاً ..

وعندما التقينا أخذته على ظهر باخرة تطوف بنا مجموعة البحيرات والجزر التى تحيط باستكهولم .. ولكن ، لا البحيرات ولا الجزر أثارت اهتمام عبد الله .. عادت إليه عيناه المجنونتان يلاحق بهما الشقراوات ..

وعندما نزلنا من الباخرة قال فى حدة وهو يضرب أسفلت الشارع بقدميه فى عصبية :

– هذا غير معقول .. يومين فى استكهولم .. ولا شقراء واحدة ..

قلت كأنى أطيب خاطره :

– صبرك .. غداً عيد كبير .. وستخرج إليك كل شقراوات البلد .

ولوى عبد الله شفتيه ، وهز كتفيه كأنه لا يبالى ..

وكان الغد هو يوم ٢٤ يوليو .. وهو أطول يوم فى السنة .. أو أطول نهار .. والسويد تحتفل بأطول نهار وتسميه « عيد منتصف الصيف » .. وتحتفل فى الشتاء بأطول ليل .. وتسميه عيد سانتا لوتشيا .. أو عيد النور .. وتنتخب فيه ملكة النور ، وتتوج بتاج من الشموع الموقدة ..

وخرجت المدينة كلها فى صبيحة يوم ٢٤ يوليو ، إلى الحدائق والشوارع .. وأوقدت النيران .. فى كل خطوتين تجد كومة كبيرة من الحطب المشتعل ، يرقص حولها الرجال والنساء .. وموسيقى وطنية صاخبة .. وأغانى .. وضحكات .. كل شىء يضحك .. الأشجار تضحك .. والجبال تضحك .. والبحيرات تضحك .. وباعة السندويتش والكراى فيش ، يضحكون .. وكل الناس تضحك .. ولكن عبد الله لا يضحك ..

إنه واقف على طريقة رودولف فالنتينو فى رواية ابن الشيخ .. مشدود القامة ، مرفوع الرأس . يده فى جيب بنطلونه ، وعيناه الفرعونيتان الساخنتان مسلطتان على الناس ، كأنه إله فى انتظار أن تقدم إليه القربان .. وابتسامته المرسومة المتعالية تطل من بين شفتيه المكتنزتين الغامقتين كأنه يمسح بها ذنوب البشر .

ومضت فترة طويلة وعبد الله واقف فى مكانه كتمثال رائع ، ويرفض أن يتحرك كأنه كان واثقاً أن هذه المرة لن تخيب ..

ومر من أمامنا طابور من الشبان والشابات .. كل شاب ممسك بيد شابة . ويجرون فى خطوات راقصة على نغمات أنشودة

وطنية .. وفى آخر الطابور فتاة شقراء ، ما كادت تمر من أمام عبد الله حتى جذبته من يده ، وخطفته ليجرى وراءها راقصاً منضماً إلى الطابور ..

ورأيت عبد الله يرتبك .. ولعله أحس بأن وجاهته قد اهتزت ، و « البوز » الذى كان يتخذه قد اختل .. ورغم ذلك فقد كان يكفى أن يشعر بيده فى يد فتاة شقراء حتى يجرى خلفها إلى آخر الدنيا ..

ثم يحاول أن يرقص كما يرقصون .. وكانت محاولاته مضحكة .. كان أشبه بالحصان الوحشى يرفس بقدميه ، وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء ..

وتنبهت إلى أن طابور الراقصين ، بما فيه عبد الله ، قد ابتعد عنى .. فدرت أبحث عنه ..

ووجدته ..

واقفاً وحيداً فى وسط الحديقة ، بعد أن تركت الفتاة يده ، عندما أحست بلخمته ، وابتعدت عنه مع الطابور ..

وضحكت ضحكة كبيرة ..

ولم يرحب عبد الله بضحكتى .. نظر إلىّ فى غيظ ، وعلى شفتيه ابتسامة مرة .. ثم عاد إلى حالة رودولف فالنتينو .. صامتاً .. القوام المشدود ، والرأس المرفوع ، والعينان المسلطتان ، والابتسامة المتعالية..

ولم يخرج فالنتينو بشىء ..

وبدأ غيظه ينقلب إلى ثورة ..

لا يمكن أن يكون فى البلد كل هؤلاء الشقراوات .. وكلهن يؤمن بحرية الحب .. ثم لا يخرج بشىء ..

إنه لا يستطيع أن يتخلى عن أحلامه بهذه السهولة ..

لا يستطيع أن يعود إلى القاهرة من السويد ، ثم لا يجد

مغامرة واحدة يرويها لأصدقائه ، ويرضى بها غروره .

وظل ثائراً إلى أن دخلنا أحد المطاعم لنتناول طعام الغداء .. وعندما تقدم منا الجرسون كان فى أشد ثورته إلى حد أن التفت إليه - إلى الجرسون - قائلا :

- كيف أستطيع فى هذا البلد أن أتعرف إلى فتاة ؟..

وابتسم الجرسون فى أدب ، وقال كأنه يرفع الغطاء عن أسرار الكون :

- تستطيع أن تذهب إلى التوريست جاردن ..

« والتوريست جاردن » أى حديقة السياح مقهى فى أحد الحدائق ، يتردد عليه السياح الأجانب ، وتتردد عليه النساء اللاتى يغرمن بصحبة الأجانب .. إنهن لسن محترفات ، ولكنهن فقط من هواة جمع التذكارات من الأجانب ..

وأصر عبد الله أن يذهب إلى التوريست جاردن ..

وذهبت معه ..

وتقدمنى بعد أن نزلنا من التاكسى ، وهو يسير فى خطوات عنيفة مصرة ، كأنه مندفع إلى معركة ..

ثم وقف أمام المقهى مبهوتاً .

إن المقهى مزدحم بالملونين .. السمر .. والسود .. من أسبانيا .. ومن بلاد العرب .. ومن بلاد أواسط أفريقيا .. وكل منهم معه فتاة شقراء ..

وسقط رأس عبد الله على صدره ، كأنه قطع عن عنقه .. قطعته خيبة الأمل .. إنه لن يكون هنا شيئاً مميزاً .. إنه واحد من كل هؤلاء الملونين .. إن الفتاة التى سيلتقطها من هنا ، لن تستجيب له لشخصيته ، ولا لعبقريته ، ولا لجماله .. ولكن لمجرد أنه ملون ، وأجنبى .. ومن يدرى ، ربما خصصت الحكومة هذا المقهى لتشجيع السياحة .

وهمس عبد الله من تحت أسنانه :

- دعنا نبتعد من هنا ..

وعدنا إلى شارع فالهالا فيتجن .. بعيداً عن التوريست جاردن .. بعيداً جداً .. وسرت أتطلع إلى نوافذ الحوانيت وعبد الله يسير بجانبى ساهماً .. ثم فجأة .. بلا مقدمات .. رفع رأسه إلى شقراء مرت به ، وأمسكها من ذراعها برفق ، وقال كأنه يتوسل :

- عن إذنك .. هل أستطيع أن أدعوك الليلة إلى العشاء ..

ونظرت إليه الفتاة فى دهشة ، ثم قالت ببساطة :

- آسفة .. إنى على موعد للعشاء ..

وترك عبد الله ذراعها ، وسار فى طريقه .. ثم ما لبث أن أمسك بشقراء أخرى ، وقال وصوته أكثر حدة :

- هل أستطيع أن أدعوك للعشاء .

وضحكت الفتاة ضحكة كبيرة .. وقالت :

- آسفة .. ربما فى يوم آخر ..

وقال عبد الله فى لهفة :

- هل أستطيع أن أعرف عنوانك .. نمرة تليفونك .. لأتصل بك ..

قالت وهى لا تزال تضحك :

- دعها للصدفة .. كما التقينا اليوم ..

وجذبت ذراعها من يده برفق وابتعدت وهى لا تزال تضحك ..

وفتاة ثالثة ..

ورابعة ..

وخيل إلىّ أن الشارع كله قد امتلأ بالضحكات الساخرة .. والعيون التفت حولنا .. عيون ليست غاضبة .. ولكنها ضاحكة .. فى ضحكاتها دهشة .. كأنها عيون تتفرج على أراجوز ..

ولكزت عبد الله فى جنبه ، وقلت :

– اعقل .. إن الناس تضحك علينا ..

قال وهو يتطلع إلى شقراء جديدة :

– دعهم يضحكون ..

قلت :

– إنك بذلك تعتدى على حرية الفتيات الشخصية ، والحرية هنا مقدسة ..

قال صارخاً :

– وحريتى .. إنى سأجن .. سأجن ..

وخفت صوته وعاد يردد :

– سأجن .. سأجن ..

•••

كل هذا كان يحدث ، وعبد الله يقوم فى الصباح وهو فى شخصيته الأخرى .. شخصية الشاب العامل الواعى الشاطر .. واستطاع فى أيام قليلة أن يحصل على عقد من إحدى شركات الاستيراد السويدية ، لتوريد كميات من الخضر والفاكهة والزهور المصرية .. ودعته الشركة إلى حفل عشاء فى أحد المطاعم الكبيرة بمناسبة توقيع العقد ، ودعوا معه بعض رجال السفارة ، ودعونى بعد أن طلب منهم عبد الله دعوتى ..

وجلس عبد الله فى صدر المائدة ، وعلى يساره مدير الشركة السويدية ، وعلى يمينه « ليانا » ، إحدى موظفات الشركة ..

وليانا شقراء رائعة الجمال .. وكنت دائماً أكره فى الشقراوات لون رموش عيونهن الباهت الذى يضيع فى لون الوجه فيضيع معه جمال العين ، وتضطر كل منهن أن تلون جفنها باللون الأخضر أو الأزرق حتى تنعكس ظلاله على رموش العين

تبرزها .. وكنت أكره أيضا هذا اللون الأخضر أو الأزرق .. ولكن ليانا لم تكن تصبغ جفنيها لا بالأخضر ولا بالأزرق .. ورموش عينيها كانت داكنة بحيث تبرز جمال العين .. وكنت أكره فى الشقراوات أيضاً أنهن يوحين بالأنوثة الخليعة .. ولكن ليانا لم تكن خليعة .. كانت أنوثتها هادئة .. كبرودة استكهولم فى الصيف .. محترمة .. ممشوقة القد ، طويلة ، كطول عبد الله ، حتى خيل إلىّ أنها خلقت على مقاسه ..

واستدار عبد الله بكل جسمه إلى ليانا .. ورأيته فى أحسن حالاته .. عيناه الفرعونيتان هادئتان كأنهما واثقتان من النصر .. وابتسامته المتعالية أكثر تعالياً .. ورودلف فالنتينو مكتمل شخصية ابن الشيخ ..

ولم يكف عن التحدث إليها .. ربما قال لها كل الكلام الذى اختزنه فى صدره من قبل أن يصل إلى استكهولم ليقوله لكل بنات السويد .. ولم يحاول مرة أن يستدير إلى مدير الشركة ليقول له كلمتين ، حتى كانت ليانا تضطر بين الحين والحين أن تمد عنقها إلى المدير لتحادثه لعل عبد الله يشترك معها فى الحديث إليه .. ولكن عبد الله كان يقول كلمة واحدة للمدير ثم يستدير إليها ، ويتفرغ لها .. ناسياً المدير .. ورجال السفارة .. والمدعوين .. لا شىء أصبح يهمه إلا هذا الأمل الكبير الذى وصل إليه ..

وقام مدير الشركة وألقى خطاباً طويلاً استغرق أكثر من ثلث ساعة .

ولم يكن عبد الله يستمع إليه .. ورغم المحاولات الكثيرة التى بذلتها ليانا . ظل مستديراً لها بكل جسمه يحدثها .. كل ما فعله أن خفض صوته قليلاً حتى لا يغطى على صوت المدير ..

وانتهى المدير من خطابه ..

ورفعنا الكئوس فى صحة العلاقات الطيبة بين السويد والجمهورية العربية .. سكول .. وسكول كلمة تستعمل عند تبادل الأنخاب ، ومعناها الحرفى « جمجمة » .. فقد كان أهل السويد القدماء يشربون الأنخاب بعد انتصاراتهم الحربية فى جماجم الأعداء .. وظلت كلمة « جمجمة » تستعمل حتى اليوم عند تبادل أى نخب ..

واتجهت الأنظار بعد ذلك إلى عبد الله .. فقد كان عليه أن يقف ويلقى كلمة رداً على كلمة المدير ..

ولكن عبد الله كان مختلياً بليانا ، حتى اضطرت أن تنبهه برفق إلى واجبه .

واهتزت رموش عبد الله فوق عينيه كأنه أفاق من حلم ، وقام واقفاً وواجه المدعوين كلهم بعينيه لأول مرة منذ بدء الحفل ، وقال بلا تلعثم :

– شكراً .. وأرجو لكم التوفيق ..

ثم رفع كأسه بسرعة ، وقال :

– سكول ..

ثم جلس بسرعة مستديراً بكل جسمه إلى ليانا ..

وضحك كل المدعوين .. ضحكوا بلا سخرية .. فقد كان عبد الله فى تصرفه خفيف الدم ..

واحمر وجه ليانا ، فقد فضح عبد الله إعجابه بها أمام كل المدعوين .. ولكنى أحسست أن عبد الله أرضى غرورها إلى حد كبير ..

وظل عبد الله بجانب ليانا بعد انتهاء الحفل ..

وعند الباب الخارجى للمطعم ، صافحنى قائلا :

– عن إذنك .. سأذهب مع ليانا .

وانطلقت ابتسامته حتى آخرها .

وابتسمت له كأنى أهنئه .. لقد حقق أخيراً حلمه الذى جاء به من القاهرة ..

•••

فى الساعة الخامسة صباحاً ، دق جرس التليفون فى غرفتى بالفندق .. واستيقظت مفزوعاً لأسمع صوت عبد الله :

– آسف لإزعاجك .. ولكنى أريد أن أراك حالاً ..

قلت وأنا أعتدل فى فراشى :

– أين أنت ؟..

قال :

– ما زلت فى المدينة .. شارع دروتنج جاتن .. رقم ٤٥ .. الدور الخامس ..

قلت وأنا أشد دهشة :

– ماذا تفعل ..

قال :

– إنى عند ليانا ..

قلت فى حدة كأنى أنهره على عبثه :

– ولماذا تريدنى ؟..

قال فى توسل :

– أرجوك .. لا تسألنى .. احضر حالاً ..

قلت :

– الآن ؟..

قال :

– الآن ..

قلت :

– أنت مجنون .. إنها الخامسة صباحاً ..

قال كأنه يهم بالبكاء :

– أرجوك ..

وتلا علىّ العنوان مرة ثانية لأكتبه .. ولم أستطع أن أجد سيارة أجرة . قبل الساعة السابعة ، وكنت أدق جرس شقة ليانا فى الثامنة ..

وفتحت لى ليانا الباب ..

إنها لا تزال فى ثوب السهرة الذى بدت به فى حفلة العشاء .. وشعرها الأصفر لا يزال فوق رأسها لم تتحرك منه شعرة .. لم يمسسه بشر ..

وانطلقت عينى إلى داخل الشقة لأرى عبد الله جالساً على أريكة عريضة .. لا يزال ببدلته .. وآثار السهر الطويل تطل من تحت عينيه ..

وقلت له فى لهفة :

– ماذا حدث ؟..

قال فى هدوء :

– اجلس ..

ونظرت إليه طويلاً ثم جلست على مقعد عريض ، وجلست ليانا على مقعد آخر .. ومنفضة السجائر أمام عبد الله ممتلئة حتى آخرها ..

وركز عينيه فى عينى ، ثم قال وهو أكثر هدوءاً :

– سأتزوج ..

قلت وأنا أكذب أذنى :

– ماذا تقول ؟..

قال :

– سأتزوج ..

قلت :

– من ؟

قال وهو ينظر إلىّ فى امتعاض كأنه يتهمنى بالغباء :

– ليانا طبعاً ..

وسكت برهة وأنا أنقل عينى بينه وبين ليانا ، ثم قلت له :

– ألا تعتقد أن الموضوع يحتاج منك إلى تفكير أكثر ؟!

قال :

– لا .. فكرت .. وقررت ..

قلت :

– لنذهب إلى الفندق ونستريح قليلاً ونناقش قرارك .. لا بد أنك متعب إثر السهر الطويل ..

قال فى حدة :

– لن أذهب إلى الفندق .. لن أفترق عن ليانا لحظة واحدة ..

والتفت إلى ليانا وقلت وأنا أدعى الهدوء وأحاول أن أناقش الموضوع مناقشة علمية حتى أقترب من عقلية بنات السويد :

– أظن أن هذا القرار يستحق التفكير ..

قالت فى هدوء ووجهها صاف لا يبدو عليه أثر التعب :

– لقد فكرنا طويلا .. الليل كله قضيناه نفكر .. ولم نكن فى حاجة إلى كل هذا التفكير لو أن « أبدولا » (تقصد عبد الله) كان مقيماً هنا .. فى السويد .. فالزواج فى نظرى إجراء سخيف ، ولكنه ضرورى فى حالتنا هذه .. فأنا معجبة بأبدولا .. أعتقد أنى معجبة به جدا جدا ، لعلى أحببته فى ليلة واحدة .. ولكنه مسافر بعد غد .. ولو اقتربت منه خطوة واحدة أكثر من ذلك فسأتعذب

بفراقه .. وأنا لا أريد أن أتعذب .. وكان أمامنا أحد حلين .. إما أن نفترق دون أن نقترب أكثر .. وإما أن نتزوج وأسافر معه .. ورفض أبدولا أن نقف حيث نحن .. إنه يقول إنه يحبنى .. ويريدنى .. إذن لم يبق أمامنا إلا الحل الآخر .. أن نتزوج وأسافر معه إلى مصر .. هذا هو كل شىء ..

ولم أتكلم .. بقيت أفكر .. وسمعت ليانا تقول لى :

– هل الجو فى مصر حار جداً ..

وأجبت فى عجلة :

– لا .. ليس جداً ..

ثم التفت إلى عبد الله قائلاً بالعربية :

– عبد الله .. أعتقد ..

وصرخ فىّ عبد الله باللغة الانجليزية :

– أرجوك .. لقد ناقشنا الموضوع بما فيه الكفاية .. ثم لماذا لا أتزوجها .. هل تعلم أنها دكتورة فى الاقتصاد .. هل تعلم أن أباها أحد أصحاب أكبر مصنع خشب فى السويد .. ثم انظر إلى مكتبتها .. وإلى مكتبة الأسطوانات .. إنها لقطة .. إنها فرصة .. لن أجد بنتاً فى مثل ثقافتها ولا فى مثل جمالها ، ولا فى مثل أخلاقها .. فى أى بلد من بلاد العالم ..

وقلت فى تهكم :

– لقد كنت تبحث عن حرية الحب فى السويد .. و ..

وقال صارخاً :

– أنت بنفسك قلت إن حرية الحب هى حرية الإرادة .. وقد اجتمعت إرادتنا الحرة على الزواج ..

ثم تمتم فى صوت خفيض :

– من كان يدرينى أنهم حتى فى السويد يتزوجون ..

وقلت فى هدوء :

– وماذا تريدنى أن أفعل ؟..

قال :

– أن تكون معى .. أنت الوحيد الذى أعرفه هنا من بلدى .. ستكون شاهداً على زواجى ..

وأدرت رأسى إلى ليانا قائلا :

– ليانا .. أرجوك .. اقنعينى بهذا الزواج ..

وقالت فى هدوء وهى تبتسم ابتسامة رشيقة :

– قلت لك إنى أنا شخصياً لا أومن بنظام الزواج .. ولو كان أبدولا مقيماً هنا لما فكرت فيه .. لأنى هنا فى بلدى ، أستطيع أن أعتمد على نفسى .. أن أشتغل .. وأضمن حياتى .. ولكنى قبل أن أسافر إلى مصر يجب أن أحصل على بعض الضمانات لحياتى .. أقلها الزواج ..

ونظر إليها أبدولا .. آسف عبد الله ، معجباً بشخصيتها ..

وهززت رأسى مؤمناً على كلامها ..

وقال عبد الله :

– اقتنعت ؟..

قلت :

– يكفى أنك مقتنع ..

قال وهو يفرد نفسه على الأريكة العريضة :

– سأنام ساعة ..

ونام ..

وقامت ليانا لتستحم وتبدل ثوبها ..

وجلست أدير النظر فى بيت ليانا وفى جدرانه المغطاة بالخشب المحروق ..

أسبانيا

مدريد باللون الأحمر ..

إن كل بيوت أستكهولم جدرانها مغطاة بالخشب ، ولكنى لم أر فى استكهولم ولا فى أى مدينة فى العالم بيتاً أكثر أناقة ولا أكثر هدوءاً وراحة من بيت ليانا ..

•••

وفى الساعة العاشرة صباحاً تم زواج ليانا وعبد الله ، ووقعت على العقد بصفتى شاهدًا ؛ ثم ذهبنا وسجلنا العقد فى سجلات سفارتنا ..

وفى اليوم نفسه سافرت إلى همبورج فى ألمانيا ..

سافرت وأنا أنتظر بين يوم وآخر أن أسمع خبر طلاق عبد الله وليانا .. لسبب واحد هو أن عبد الله كان يبحث فى السويد عن مغامرة مع شقراء .. لا عن زوجة ..

والتقينا فى القاهرة ..

وكانت ليانا أجمل فى القاهرة منها فى السويد .. جمالها لوى عنق القاهرة .. وجعل منها نجمة كل المجتمعات .. وكانت أنيقة .. هادئة .. مخلصة .. وكان بيتها الذى استوردت كل أثاثه من السويد ، رائعاً ..

لذلك ذهل الناس عندما تم الطلاق .

ما عدا أنا ..

كنت أعرف أن ليانا تثير فى نفس عبد الله إحساسه بالفشل ..

الفشل كمغامر فى جنة الشقراوات ..

وكان الإحساس بالفشل يتضخم يوماً بعد يوم .. ويعذب عبد الله وعبد الله يعذب ليانا .. إلى أن انفجر الإحساس بالفشل ..

وتم الطلاق ..

مدريد .. ولم يكن لى فى مدريد سوى ليلة واحدة .. وألقيت حقائبى فى غرفتى ، ونزلت إلى بهو الفندق ، دون أن أحلق ذقنى أو أبدل ثيابى ، بعد الساعات الطويلة المتعبة التى قضيتها طائرا ، وكان ليلة واحدة فى مدريد لا تستحق منى أن أحلق لها ذقنى وأبدل ثيابى ..

ولم أكن ليلتها أطمع فى شىء ، إلا أن أسير فى شوارع مدريد ، أتطلع إلى وجوه الناس والمطر يتساقط عليها فتبدو كأنها وجوه من الشمع تذوب فى نار باردة . إلى أن أذوب أنا الآخر من التعب ، فأعود إلى غرفتى ، وأتناول طبقاً من اللبن الزبادى ، وأنام ..

كان هذا هو كل ما أريده ..

ولكنى لم أكد أتوسط بهو الفندق حتى امتلأت أذناى بصوت رفيع حاد شديد الانفعال تختلط فيه الكلمات الأسبانية بالكلمات الانجليزية ، بالفرنسية ، بالألمانية .. و ..

وتوقفت ..

لابد أنه صديقى صلاح .. لا أحد فى الدنيا كلها يمكن أن يكون له هذا الصوت الرفيع الحاد سوى صلاح .. ولا أحد فى الدنيا

يستطيع أن ينطق بكل هذه اللغات فى وقت واحد وفى جملة واحدة ، سوى صلاح ..

وتلفت حولى إلى أن لمحته .. صلاح .. واقفاً يتكلم بصوته الحاد ، ويشوح بيديه ، وأمامه رجلان تبدو عليهما الحيرة والارتباك وهما يحاولان أن يجدا وقفة عابرة فى كلامه ينفذان منها ليردا عليه ويقولا رأيهما .. وهذه هى عادة صلاح دائماً .. عندما يتكلم لا ينتظر من أحد أن يرد عليه ، ولا يترك لأحد برهة يرد فيها عليه .. إنه يتنفس كلامه ، فإذا توقف عن الكلام ، اختنق .

ووقفت أرقبه ، وابتسامة كبيرة تملأ قلبى .. إنى أحب صلاح رغم أنى لا أعرفه جيدا .. بل ربما أحبه لأنى لا أعرفه جيدا ، وقد علمتنى الحياة أنه لكى تحتفظ بحب رجل يجب ألا تعرفه جيدا ، ألا تقترب منه إلى الحد الذى تفقد عنده حبك له .. وأنا لم أقترب من صلاح إلا فى لقاءات عابرة .. دائماً خارج مصر .. ودائماً بالصدفة .. قابلته مرة فى روما .. ومرة فى لندن .. ومرة فى نيويورك .. ومرة فى نيودلهى .. ولم أكن أعرف بالضبط ماذا يعمل .. مرة وجدته يعمل لحسابه فى التصدير والاستيراد .. ومرة وجدته مستشارا لإحدى الدول العربية .. ومرة وجدته مندوباً لإحدى الشركات الألمانية .. و .. و .. الشىء الذى لم يتغير فيه هو صوته الحاد المنفعل ، المتدفق بالحياة .. وشبابه الذى لا يتعب أبدا .. إنى منذ قابلته لأول مرة ـ منذ أكثر من ثمانى سنوات ـ وشكله لم يتغير أبداً .. قامته القصيرة .. ووجهه الوسيم المحتقن دائماً بانفعاله .. وعيناه اللتان يبرق فيهما ذكاء مشتعل بالنشاط .. وابتسامة كبيرة لا تفتر أبدا . وشعره الفاتح الذى

يرفض أن يستسلم للشيب .. إنه شباب دائم فى مظهره وفى روحه .. أخضر دائماً كنبات الصبير ..

ولمحنى صلاح ..

وانفتحت عيناه من الدهشة ، ثم صرخ صرخة حادة أزعجت الفندق كله . ولوت إلينا أعناق كل الناس .. وهجم علىّ يحتضننى ويقبلنى ، وهو يردد بصوته المنفعل :

– لا يمكن .. مستحيل .. أنت هنا .. منذ متى .. لا تقل أنك هنا من أيام .. لابد أنك وصلت منذ دقائق .. إنى أستطيع أن أشم رائحتك بمجرد وصولك ..

واستسلمت له .. لم أحاول أن أردد معه كلمات الترحيب .. وهو لا ينتظر منى أن أتكلم .. إنه يتكلم بما يكفينا نحن الاثنين !!

وأطلقنى من بين ذراعيه ، وهو يقول :

– هل أنت مرتبط هذه الليلة ؟!

ولم ينتظر أن أجيبه .. أو ربما لمح الجواب فى عينى بذكائه .. واستطرد قائلا بصوته الضاج :

– انتظرنى هنا .. لا تتحرك .. سأعود إليك بعد دقيقتين ..

وانطلق إلى الرجلين اللذين كان يحادثهما ..

وألقيت نفسى على أحد مقاعد البهو ، وأنا أنظر خلفه فى إعجاب . أكاد أكون مبهوراً به .. والواقع أننى أبهر بكل مصرى يستطيع أن يعيش فى الخارج وأن يجد عملا هناك يعينه على الحياة .. أتصوره غازياً ، أو فاتحاً .. فتح لمصر مجالا جديداً حتى ولو كان مجالا ضيقا لا يكفى ليتحرك فيه إلا شخص واحد .. ربما لأنى أنا نفسى كنت أحلم بأن أقضى حياتى متنقلا بين بلاد العالم .. لى فى كل بلد مائدة صغيرة أكتب عليها .. وقد فشلت دائماً فى أن أحقق حلمى ، لأنى أتوه بين الناس الغرباء .. أفقد

شخصيتى .. أفقد إحساسى بنفسى .. إنى أستمد قدرتى على الكتابة من إحساسى بشخصيتى ، وشخصيتى لا أجدها إلا هنا .. فى مصر .. بلدى .. وكلما بعدت عن مصر شعرت بمائة حبل غليظ يشدنى من عنقى .. ومن قلبى .. ومن عقلى .. ومن قدمى .. إلى بلدى .. إلى شخصيتى ..

وعاد إلىّ صلاح بعد نصف ساعة ، يتقدمه صوته الرفيع الحاد :

– الليلة للصباح ..

قلت :

– إنى متعب و .....

ولكنه لم يسمعنى ، ولم يتركنى حتى أسمعه ما أريد قوله ، واستطرد قائلا وهو يجذبنى من ذراعى :

– سأعرفك بأجمل بنات الأرض ..

وخيل إلىّ أنه على موعد مع فتاة ، وأنه سيصحبنى معه ليقدمنى إليها .. وأنا لا أعرف شيئا عن حياة صلاح الخاصة .. ولكنى كنت سمعت وأنا فى القاهرة أنه أحب سيدة إيطالية ، وأثار حول حبه نفس الضجة التى يثيرها فى كل مكان ، ثم تزوجها ..

وانتهزت برهة عابرة كف فيها عن الكلام وهو يلبس معطفه ، وسألته :

– ألم تتزوج ؟

وتوقفت ذراعه التى كان يدسها فى كم المعطف ، ونظر إلىّ كأنه فوجىء بالسؤال ، وخيل إلىّ أن سحابة داكنة مرت على وجهه .. ولكنه أزاحها بسرعة وعادت إليه ضحكته الكبيرة الصاخبة ، وقال وهو يتم لبس المعطف :

– يا أســتــاذ .. أتزوج .. هل أنــا مــجنون .. ولمــن أترك بنات الناس !!

ثم شدنى إلى سيارة أجرة ، ودفعنى داخلها ..

وهو لا يكف عن الكلام ..

وحديث صلاح كما تختلط فيـه كل اللغات العالمية ، تختلط فيه كل المواضـيع .. إنه يتـحدث عن التـجـارة ، وعن أسعـار الصلب والقطن والفوسفـات ، ثم ينتقل فجأة إلى حـديث الحب ، ثم يقفز إلى المشـاريع السينـمائيـة ، ويتحـدث عن الأفـلام من ناحيـتهـا التجـارية بنفس الحماس الذى يتحـدث به عن ناحيتهـا الفنية ، ثم تجده فجأة يتحدث فى السياسة الخارجية ، ثم ينتقل إلى الأدب .. وهو فى كل ذلك غزير المعلومـات .. لا أدرى كيف يستطيع أن يلم بكل هذه المعلومات فى مـواضيع متناقضة ، بل إنه قـرأ آخر إنتاج لكل أدباء مصر رغم أنه يعيش بعيدا عن مصر منذ سنوات .. وكل المجلات .. وكل الصـحف .. إن إقباله علـى الحياة يجـعله يحرص على ألا يفوته شيء مـهما كان بـعيداً ، ومهـما كان صغـيرا .. إنه يريد أن يحس دائمـاً بأنه يعـيش داخل بلده ، كـما يعـيش مع كل شعوب الـعالم .. إنها حيـوية .. حيوية تسع الحيـاة كلها .. ورغم ذلك فعنـدما تسمع آراء صــلاح ، تحس أنها كلهـا آراء عاطفـية .. ليست قائمـة على المعلومات الدقيقـة التى جمعهـا ، بل قائمة على مجرد أحاسيسه .. وتحتار فى اكتشاف هذه الأحاسيس التى تملى عليه آراءه .. إنها أحـياناً تبدو أحاسـيس قاسية جامـدة ، وأحياناً تبدو أحاسـيسه رقيـقة إنسانية ، وأحـياناً تبدو يائسة ، وأحـياناً تنبض بالأمل ..

والسـيارة الأجـرة تلف بنا شـوارع مـدريد .. ثم تنحـرف فى

شـارع ضيق خـافت الضوء ، وتقف عـند باب كبـير من الخـشب الثقيل .. مغلق .. لا يكشف عن شىء ..

وسألت صلاح وهو يدفع أجر السائق :

– أين نحن ؟

وأجاب ضاحكاً :

– لا تسأل .. مفاجأة ..

ودفع البـاب الكبيـر برفق ، فـانفتـح بسهـولة .. ودخل ، وأنا خلفه ..

ووقفت مشدوهاً ..

وجـدت نفسى فـى حانة جـدرانهـا مكسوة بـاللون الأحمـر ، ومـقاعـدها وأرائكها مكسـوة بالقطيـفة الحـمراء ، وعلى أبوابهـا ونوافذها ستر سميكة حمراء .. والضوء أحمر خافت ، ولكنه يكفى لتتبين من خلاله الوجوه ، وقد كستها ظلال حمراء داكنة ..

وجوه بنات ..

كم بنت ..

عـشــرون .. ثلاثون .. لا أدرى .. ولكنــهن يمـلأن الحــانة .. بعضهن مسترخـيات على الأرائك ، وبعضهن يتضاحكن فى همس حول الموائد .. وبـعضهن واقـفات عند البـار .. بعضهـن فى ثياب اسبـانية ، وبعضهـن فى ثياب حديثة أنيـقة غاليـة .. وعند إحدى الموائد يجلس رجلان يبدو عليهما أنهما من أمريكا وحولهما خمس بنات .. وعلى البار يجلس رجل أسمر يعلو خده جرح عميق ، يبدو عليه أنه مـصارع ثيران قديم .. وشـاب معجب بنفسـه جالس فى ركن يداعب كأسه .. والكأس ملول فى يده من طول ما داعبه .

وزحـفت وراء صلاح إلى أن جلسنـا إلى مائدة ، وأنا مـبهـور الأنفـاس .. خـيل إلىّ أنى دخلت فى أحـد ديكورات فـيلم « إيرمـا

الغائية » .. أو أنى دخلت فى إحدى لوحات الفنان لوتريك الذى كان يرسم حانات باريس وغانيات باريس فى أوائل القرن العشرين .. ولم أحاول أن أقيس ما حولى بمقاييس الأخلاق .. أبداً.. لم تثرنى ساق عارية تطل من تحت ثوب فتاة .. ولا تأثرت بنظرة جريئة تلقى هنا أو هناك .. لقد كنت أرى أمامى صورة مجسمة من صور الإنسانية .. الإنسانية فى أقدم صورها .. الصورة التى لم يتغير موضوعها قطّ عبر التاريخ وإن تغيرت ألوانها . وأحسست برغبة عارمة فى أن أرسم بقلمى صورة لكل وجه من الوجوه التى تحيط بى ، كما كان يرسمها لو تريك بريشته .. أرسمها من أعماقها . بكل ما فى أعماق الإنسان من شقاء وعذاب لا يجدان منطلقاً لهما إلا فى اللامبالاة .. فى ضحكات فارغة .. وابتسامات مزيفة .. وألوان فاقعة ..

وأشار صديقى صلاح ـ وهو يرشف الكأس الأولى ـ إلى باب صغير جانبى يؤدى إلى سلم ضيق منزو ، فرشت درجاته بالبساط الأحمر .. ثم أشار بأصبعه إلى فوق .. وضحك ضحكة كبيرة ..

وفهمت .. وبعد أن فهمت ، لم أمتعض .. ولا قلبت شفتى ازدراء .. إنى لا أمتعض من الفقر ، ولا أزدرى الفقراء .. والصورة التى أمامى بكل ما فيها من ألوان غنية ، هى صورة الفقر .. الإنسان الفقير ..

وعدت أدير عينى فى زوايا الصورة .. والرغبة العارمة تشتد بى أن أرسم كل وجه تقع عليه عينى .. أرسمه فى قصة .. وخيالى ينطلق خلف كل عينين محاولا أن يكتشف تفاصيل القصة وسطورها ..

وانتهى صلاح من الكأس الثانية ، ثم التفت إلى جانبه ودعا فتاة إلى مائدتنا ..

مؤكد أنه لم ينتق هذه الفتاة ، ولكنها كانت ـ بالصدفة ـ أقرب فتاة إليه ..

وجاءت فرحة .. والتفتت إلى صديقتها قبل أن تقوم من مكانها كأنها تتباهى عليها ..

إنها قطعة من أسبانيا .. العيون السود ، الواسعة ، العصبية .. والشعر الأسود الطويل المدلى خلف ظهرها .. والوجه النحيل .. والوجنتان المشفوطتان .. والشفاه الرقيقة .. والأنف الكبير .. والقوام الممشوق الفاره .. ولم تكن ترتدى زياً أسبانياً .. كانت ترتدى زياً حديثاً أنيقاً كأنها انتقته من أحد معارض الأزياء فى باريس ..

وجلست بجانب صلاح ..

لم تتحدث .. ولكنها مدت إليه وجهها كأنها تنتظر أمره لتطيعه ..

ولم يأمرها صلاح .. ولا تحدث إليها .. ولكنه استدار إلىّ وأعطاها ظهره .. واستمر فى حديثه معى كأنه لم يدع أحداً إلى مائدتنا .. وصوته الحاد المنفعل يملأ الحانة ..

ولمحت الفرحة على وجه الفتاة تنهار ، عندما قابلها صلاح بهذا الإهمال . ولكنها ظلت فى مكانها ، وهى تطبق شفتيها فى قوة ، كأنها قررت الاحتمال .. والصبر ..

ثم بعد مدة ..

ربما مدة طويلة ..

همست فى حياء :

ـ هل أستطيع أن أطلب كأساً ؟

وأجاب صلاح كأنه أكرم الناس :

– طبعاً .. طبعاً ..

ثم أشار إلى الجرسون ، وطلب لها كأساً ..

ومع الكأس ، خرجت من أحد جوانب الحانة مغنية أسبانية وخلفها عازف جيتار ، وأخذت تطوف على الموائد وهى تغنى إحدى أغانى « الفلمنجو » أغان حزينة ناعمة كأنها النواح .. ولمحت الفتاة التى تجلس إلى مائدتنا ، تتمتم اللحن بشفتيها ، وخيل إلىّ أن عينيها قد لمعتا بطبقة من الدموع ..

وفجأة استدار صلاح ناحية الفتاة ، وسألها :

– ما اسمك ؟

وأجابت الفتاة فى فرح ، كأن أزمتها قد انفرجت :

– بيتينا ..

وأطال صلاح النظر فى عينيها ، ثم التقط يدها واحتفظ بها بين يديه ، وقال فى صوت رقيق حالم لم أسمعه من قبل .. كأن شخصاً آخر يتحدث :

– بيتينا .. صدقينى .. إنى أحبك ..

وابتسمت بيتينا ابتسامة كبيرة كأنها فهمت ما يقصده ، وأشارت بأصبعها إلى فوق .. إلى حيث يؤدى السلم الضيق ..

وهز صلاح رأسه بالنفى ، وقال وهو لا يزال محتفظاً برقته :

– لا .. لا أقصد هذا .. إنى أحبك .. ألا تعلمين ما هو الحب .. إنك تشبهين الفتاة الوحيدة التى أحببتها فى حياتى .. إنى أحس كأنى أحبك مثلما أحببتها ..

ونظرت إليه بيتينا فى غباء ، كأنها تحاول أن تفهم ما يريده منها ..

واستطرد صلاح قائلاً وهو يطل بعينيه فى عينيها :

– اسمعى .. غداً تسافرين معى إلى روما .. سنقضى هناك يومين .. وبعدها نطير إلى جنيف .. ثم إلى باريس .. ما رأيك ؟

ونظرت إليه بيتينا كأنها تنظر إلى إنسان مجنون ، ثم أشارت بأصبعها إلى فوق ، وقالت :

– ألا تعتقد أننا نستطيع أن نبدأ من هنا ؟!

وقال صلاح وهو يتنهد ، ويشير إلى قلبه بكل يده :

– لا .. يجب أن نبدأ من هنا !

ولم تفهمه بيتينا ، وقالت وهى تضحك :

– تقصد صدرى ..

ولوى صلاح شفتيه فى تأفف . وقال :

– ليس صدرك يا بيتينا .. قلبك !

ثم استدارت إلىّ ، وانطلق صوته كما كان ، وكأنه يئس من تمثيل دور الإنسان العاطفى .. وعاد يتحدث إلىّ حديثه الذى يضم كل اللغات وكل المواضيع ..

وتنهدت بيتينا كأنها تشد حبال الصبر ، وانكمشت صامتة ..

وفجأة قرر صلاح أن نقوم لنتناول عشاءنا فى مكان آخر ، ونادى الجرسون ليدفع له الحساب .. ولمست بيتينا ذراع صلاح ، وفى عينيها نظرة متسائلة مسكينة .. وأجاب صلاح على تساؤلها قائلاً :

– إنى أدعوك للعشاء معنا ؟

قالت كأنها تتوسل :

– نتعشى هنا ..

قال :

– لا .. فى مكان آخر ..

قالت :

– تدفع لى عشرة آلاف بيزيتا ..

قال صلاح وفى صوته حدة :

– يا حـبيـبـتى .. إن كل ما أملكـه لـك .. وأنا لا أريد منـك إلا الحب .

قالت وفى عينيها تردد وجل :

– تدفع لى مقدماً ..

والتفت إلىّ صلاح قائلا :

– ماذا أفـعل بهذه الفـتاة .. أحـدثها عن الحب ، وتحـدثنى عن الدفع ..

وقالت بيتينا :

– إنى مضطرة أن أعيش ..

وقال صلاح :

– إنى أعدك بحياة زاهية .. وأنت ترفضين !!

وسكتت بيـتينا كـأنها يئـست من ليلتهـا .. وجاء الجـرسون ، وأخرج صـلاح من جيـبه رزمـة كبيـرة من الأوراق المالية لـيدفع حسابنا .. ولمحت عـينى بيتينا تبرقـان فى نهم وجوع وهى تنظر إلى رزمة الأوراق المالية ، ثم تلفتت حولها .. لم يكن بالحانة كثير من الرجال .. ليس هناك أمل فى أن تجد رجلا آخر لهذه الليلة .

وانطلقت قائلة كأنها تتشبث بقطار الحظ :

– انتظر .. سآتـى معك .. ولكنى يجب أن أغـير ثوبى .. إن هذا الثوب ملك لصاحب المحل ..

وابتسم صلاح وقال كأنه انتصر :

– سأنتظر ..

واختفت بيتينا ، وصلاح يقول لى بصوته الحاد المرتفع :

– إنى إنســان عاطـفى .. إنى أدفع أى شىء بالحب .. ولا أدفع شيئاً بلا حب .

وقلت فى برود :

– إنك لا تستطيع أن تشترى الحب .

قال كأنه صادق :

– إنى لا أشتريه .. إنى أبحث عنه !

وحاولـت أن أصدقه .. حـاولت أن أصدق أنه يـبحث فعـلا عن الحب .. ويبحث عنه هنا ، فى مثل هذه الحانات .

وعادت بيتـينا مرتدية ثوباً فقـيراً .. وقد جمعت شـعرها خلف رأسهـا .. وخيل إلىّ أنها فـتاة أخرى .. إن مجـرد تغييـر الثوب ، يخلق فتاة جديدة ..

وخرجنا من الحانة الحـمراء .. وخيل إلىّ أن مدريد كلهـا تغير لونها بمجرد أن خرجت .. وقلت لصلاح :

– إنه جو عجيب داخل هذه الحانة ..

وأجاب صلاح :

– إنه مـحل سيـاحى .. تشـرف عليـه مصلحـة السـياحـة .. الأسعار محددة .. إن الأسبان يعرفون كيف يجذبون السياح ..

وأحسست بكل شىء ينهار فى خيالى .. كأن يداً قاسية امتدت لتمـزق لوحات لوتريك التى كنت أعيش داخل إطارها .. أحـسست أنى كنت أعيـش فى صورة مزيفـة .. رخيصـة .. كهـذه اللوحات المزيفة التى تباع للسياح .

ووضع صلاح ذراعه فى ذراع بيتينا ، وسرت بجانبهما أستمع إلى أعجب حوار يمكن أن يدور بين رجل وامرأة ..

صلاح يتحدث عن الحب ..

وبيتينا تتحدث عن ليلة تقبض فيها عشرة آلاف بيزيتا ..

وخيل إلىّ أن بيتينا أصدق وأشرف من صلاح ..

صلاح يحتال على الواقع ..

وبيتينا ليست محتالة ..

والشوارع غسلها المطر .. وانعكست عليها أضواء المصابيح ، كأن كل مصباح يلقى بحمله على الأرض .. والجو فيه هذه البرودة الخفيفة اللذيذة المنعشة .. وقالت بيتينا :

- ألا نركب سيارة .. ؟

وقال صلاح كأنه يتباهى بى أمامها :

- إن معنا فناناً كبيراً .. والفنانون يحبون المشى بعد منتصف الليل .. وسنأخذه إلى حيث يتناول الفنانون عشاءهم ..

ثم نزع ذراعه من ذراعها والتفت إلىّ وعاد إلى حديثه المنطلق الذى تختلط فيه كل اللغات ، بكل المواضيع ..

وخيل إلىّ أنه نسيها .. نسى بيتينا . إننا نسبقها بخطواتنا الواسعة ، وهى تسير وراءنا ، متعبة ، منهكة ، يتعثر كعبها العالى فى بلاط الشارع . وكنت أتعمد أن أقصر خطواتى حتى تلحقنا بيتينا ، ولكننا لا نلبث أن نعود . ونسبقها .. والتفت إليها .. ومع أمارات التعب والإنهاك التى تكسو وجهها لمحت فى عينيها الواسعتين نظرة غيظ وحقد تسلطها على صلاح .. كأنها تهم أن تطعنه فى ظهره ..

وقلت لصلاح :

- إن الفتاة متعبة .. ألا نركب تاكسى ..

وقال صلاح بصوته الحاد المنطلق :

- إنك لا تعرف بنات مدريد ..

ونقل الموضوع بسرعة إلى موضوع آخر .. وقاطعته بحدة قائلا :

- أنا شخصياً متعب .. أفضل أن أركب ..

وقال ورنة صوته العالى لم تتغير :

- خطوتين ونصل ..

ودخلنا فى حوارى مدريد .. وبيتينا تعترض .. وأنا أعترض .. وصلاح يضحك .. وخيل إلىّ أن فى ضحكته قسوة وتشفياً .. وحارة بعد حارة ..

ثم وصلنا ..

وصلنا إلى « مسمط » ... مطعم يبيع لحمة الرأس ، والكرشة ، والكوارع ..

وصاح صلاح متباهياً :

- هذا المحل اكتشفته بنفسى .. هل كنت تصدق أن فى مدريد مسمطاً ..

وصاحت بيتينا فى غيظ :

- لقد اكتشفته وأنا فى الثالثة من عمرى .. واكتشفه أبى من قبلى ..

ثم بصقت على الأرض فى قرف ..

ولكنها اضطرت أن تأكل لأنها كانت جائعة ..

واضطررت أن آكل لأن صلاح بإلحاحه وبصوته العالى الحاد ، أرغمنى على الأكل ..

وقالت بيتينا وأمامها عظام الرأس التى أكلت لحمها :

- قل لى بصراحة .. ماذا تريد منى ؟!

وانتهى صلاح من مضغ قطعة من لسان الخروف ، ثم أمسك بيدها وقال :

- أريدك كلك ..

قالت وهى تكاد تذبحه بعينيها :

- إلى أين نذهب من هنا ؟

قال :

– معى دائماً ..

ونظرت إلىّ كأنها تشهدنى على سخافة صديقى ، والغيظ يكاد يسحب الدموع من عينيها ..

وقلت كأنى أحاول أن أساعدها :

– أظن أننا يجب أن ننام ..

وأخرج صلاح محفظته ودفع الحساب ، وأطلت بيتينا فى المحفظة بعينين متوسلتين ، وقالت :

– ألا تعطينى شيئاً الآن ..

قال صلاح وهو يعيد محفظته إلى جيبه :

– صدقينى .. كل ما أملك سيكون لك ..

وخرجنا إلى الحارة ..

ومن حارة إلى حارة ..

وفى حارة سمعنا صوت أنين .. وتلفتت بيتينا حولها ، ثم صاحت :

– إنه طفل ..

وركعت على الأرض بجانب طفل فى الخامسة من عمره يرقد بجانب جدار بيت ، يبكى ..

ولا أدرى ما هى حكاية الطفل .. ولكنى سمعت صوت صلاح يصيح فى حدة :

– اتركيه فى حاله ..

وصاحت بيتينا :

– لا أستطيع أن أتركه ، إنه يكاد يموت من البرد ..

وصاح صلاح :

– اتركيه .. إننا لسنا جميعاً إسعاف .. سيعثر عليه رجل البوليس بعدنا ..

وصاحت بيتينا :

– سآخذه معى ..

وصاح صلاح :

– سأتركك معه .. إنى ذاهب .. ذاهب حالاً ..

وصرخت بيتينا :

– اذهب عليك لعنة الله ..

وحملت الطفل بين ذراعيها ووقفت به ..

وذهب صلاح فعلا ..

ووقفت حائراً لا أدرى ماذا أصنع .. لو كان معى نقود لأعطيتها ما معى وذهبت أنا الآخر ، ولكن ليس معى مليم واحد ، فقد هبطت مدريد صدفة وأنا فى طريقى إلى الدار البيضاء بدعوة من إحدى الشركات السينمائية .. ثم إنى لا أعرف شيئاً من اللغة الأسبانية .. لا أعرف شيئاً أبداً ..

وظللت واقفاً أتخبط فى حيرتى ..

وبيتينا تحمل الطفل بين ذراعيها ، وتنظر إلىّ بعينيها الواسعتين فى تساؤل .

ولاح شبح أحد المارة .. ثم جاء مار آخر .. وبدأ الناس يتجمعون حول بيتينا والطفل .. يتحدثون بالأسبانية .. كلام كثير لم أفهم منه شيئاً ..

ونظرت إلى بيتينا ، كأنى اطمأننت عليها .. ثم استدرت .. وقبل أن أبتعد .. صاحت ورائى :

– هيه .. أنت ..

والتفت إليها .. فقالت وابتسامة ضعيفة على شفتيها :

– شكراً ..

إنهـا تشكرنى لمجـرد أنى وقـفت معـهـا إلى أن تجـمع الناس حولها .. وذهبت ..

●●●

ووجدت صــلاح ينتظرنى فى نهاية الحـارة .. وسرت بجـانبه ونحن صامتـان .. كل ضجته صمـتت .. وخيل إلىّ أنه يتنفس فى صمـته كـأنه يلهث .. كأنه يخـتنق .. وركبنا سـيارة أجـرة عندما وصلنا إلى الشارع الكبير .. ولم نـتكلم فى السيارة .. إلى أن كدنا نصل إلى الفندق ، وفجأة انطلق صلاح قائلا :

– أتدرى لماذا لم أتزوج .. لقـد كنت أحـبـها .. ولكن كـان لهـا طفل .. الأطفال دائماً يقفون فى طريقى ..

ولم أر صلاح من يومها ..

ولا أدرى متى ولا أين سأراه ..

السنغال

اللـون الآخـر ..

الطائرة تابعة لشركة « إير أفريكا » وهى فرع من شركة « إيرفرانس » . ولكن الفرق بين طائرات إيرأفريكا وطائرات إيرفرانس ، يوازى الفرق بين تاكسى أرياف ، وسيارة عبد الحليم حافظ البويك ريفييرا موديل ١٩٦٥ .. والسبب ، أن معظم ركاب إير أفريكا من الزنوج ، ومعظم ركاب إير فرانس من البيض !

وكنت عائداً من « باماكو » عاصمة جمهورية مالى ، بعد انتهاء مؤتمر اتحاد الصحفيين الأفريقيين الذي كان منعقداً هناك .. فى طريقى إلى « دكار » عاصمة السنغال .. ولحقت طائرة « إير أفريكا » فى آخر لحظة .. تشعبطت فيها بنفس الطريقة التى تعودت فى طفولتى أن أتشعبط بها على ترام العباسية ..

ووجدت نفسى محشوراً داخل الطائرة الصغيرة بين شابين عرفتهما أثناء جلسات المؤتمر .. أحدهما « كوفى كمفورت » ، والثانى « ريجنالد رايلى » .

وكوفى كان أحد أعضاء وفد غانا فى المؤتمر .. وكان عضواً معى فى اللجنة السياسية .. وهو شاب طويل ، له شارب أسود لا يكاد يتميز عن لون وجهه ، ويصفف شعره الأكرت الخشن فى هرمين عاليين ، كهرمى خوفو ومنقرع ، ويضع بين أسنانه دائماً « بايب » كبيراً كالح اللون ، على الطريقة الانجليزية .. وقد أتعبنى

كوفى كثيراً أثناء مناقشات اللجنة السياسية ، خصوصاً عندما عرضت اتخاذ قرار بإدانة إسرائيل .. ولم يكن ما أتعبنى منه هو منطقه فى المناقشة .. ولكن لهجته .. إنه يناقش فى لهجة متعالية مستفزة تنضح إحساساً معقداً بالعظمة .. وأهل غانا هم أكثر أهل أفريقيا اعتزازاً وتفاخراً بأفريقيتهم ..اعتزاز يبلغ حد التحدى .. والرئيس نكروما هو الذى أثار فى مواطنيه هذا الاعتزاز وهذا التفاخر .. وهو صاحب دعوة إلى القومية الأفريقية .. وقد رأيت على جدران مبنى الحزب ، عندما زرت أكرا عاصمة غانا ، لوحات ساذجة ترسم تاريخ غانا على أنها الدولة التى ألهمت الإنسانية جميع الفنون والآداب والعلوم ، من قبل اليونان ، ومن قبل المصريين القدماء .. لوحة تمثل شيشيرون وهو يتلقى فن الخطابة من خطيب غانى .. ولوحة تمثل أفلاطون وهو يتلقى أصول الفلسفة من فيلسوف غانى .. وأول من بنى بيتاً ووضع قواعد الهندسة المعمارية كانت امرأة من غانا .. و .. و .. و .. وبصرف النظر عما فى هذه اللوحات من مبالغات تاريخية ، فإن الهدف منها هو إحياء الاعتزاز القومى بين الأفريقيين بعد أن قضى المستعمرون مئات السنين يعتصرون عزة أفريقيا فى محاولة لإحالة أهلها إلى عبيد ، والإبقاء عليهم عبيداً .. ولكن كوفى كان طرازاً آخر من الشباب غير ما أراده الرئيس نكروما .. إن اعتزازه بأفريقيته تضخم إلى حد أن أصبح نوعاً من مركب العظمة ، وانتفخ إلى حد أن أى خدش غير مقصود ، يجعله ينفجر .. ورغم ذلك .. رغم المناقشات الحادة العنيفة التى دارت بيننا أثناء انعقاد المؤتمر .. فقد تصافحنا عقب المؤتمر ، وحاولنا أن نكون صديقين ، على عادة المثقفين الذين يمتازون بالنفاق الثقافى .. والنفاق الثقافى غير النفاق المادى . النفاق المادى تحتاج إليه عندما تريد مصلحة

مادية من إنسان ما .. قرض ، أو وظيفة ، أو سيجارة .. أما النفاق الثقافى فقد تحتاج إليه حتى لو لم يكن لك مصلحة مادية .. إنما تحتاج إليه لتحتفظ بخصومك فى الرأى حتى تستمر المناقشة بينكما ، لأن المناقشة هى ممارسة الثقافة ومظهرها ، فإذا لم يكن لك خصوم حرمت من المناقشة وبالتالى حرمت من ممارسة ثقافتك .. فإذا كنت من المثقفين السياسيين ، وتوليت الحكم فإن الحكم يغنيك عن الثقافة ، وبالتالى يغنيك عن ممارسة الثقافة .. أى أنك لن تكون فى حاجة إلى المناقشة .. وبالتالى يحق لك أن تقتل بقية المثقفين .. وأنا وكوفى لم يكن أحدنا يحكم الآخر ، ولذلك لم يكن أحدنا يستطيع أن يقتل الآخر .. بل كان كل منا فى حاجة إلى مناقشة الآخر حتى يمارس ثقافته ويتظاهر بها .. لذلك نافق كل منا الآخر ..

هذا عن كوفى كمفورت ..

أما ريجنالد رايلى .. فهو صحفى انجليزى لا يتجاوز الثلاثين من عمره ، ورغم ذلك فهو يبدو كأنه صورة قديمة للمستعمرين الإنجليز فى العصر الفيكتورى .. سمين « مربرب » أحمر الوجه دائماً ، كأنه يعانى عقدة الخجل من جرائم أجداده ، ويضع بين شفتيه سيجاراً أسود يسيل عليه لعابه .. ويلبس بنطلون شورت ، لونه كاكى ، ينزل إلى ما تحت ركبتيه ، وعلى رأسه قبعة فلين كبيرة ، ويمسك فى يده منشة .. وكان يتسكع على أبواب المؤتمر ، ويندس بين أعضائه ، ويوجه أسئلته فى لهجة متعجرفة ، كأن كل عضو من الأعضاء مكلف بأن يقدم له تقريراً عن أعماله ..

ولم أسلم من ملاحقة رايلى لى خلال أيام المؤتمر ، ولكنى كنت دائماً أهرب منه .. كان صوته الذى يخرج من أنفه كعمود الدخان الساخن ، يزعجنى وكانت رائحة البيرة وسيجاره الأسود ،

تستفزنى ، وكان نوع أسئلته يريبنى .. وربما كان هو الآخر لا يستريح إلىّ .. ولكن لأننا من المثقفين ، فقد أبقينا بيننا هذا الخيط من النفاق الثقافى .. كل منا يبتسم للآخر .. ونتبادل بين الحين والحين مناقشة جوفاء تتركز فى كلمات رنانة منتقاة ، تبدو كأنها مناقشة عميقة .. عمق كاذب .. وكل منا حريص على أن يثبت للآخر أنه من سعة العقل ، ورحابة الصدر ، بحيث لا يسمح لخلافاتنا الأيدلوجية بأن تفسد صداقتنا .. الصداقة الكاذبة أيضاً !!

وعندما دخلت الطائرة هززت رأسى أحيى كوفى كمفورت ، وريجنالد رايلى ولكن كلاهما كان مشغولا عنى فى نقاش حاد .. فقد ألقى رايلى بحقيبة يده الصغيرة على المقعد المجاور للنافذة بمجرد أن ركب الطائرة ، بينما كان كوفى يسبقه إلى نفس المقعد .. وأصر كوفى على أن يحتل المقعد ، وأصر رايلى على أن المقعد أصبح من حقه لمجرد أن حقيبته سبقته إليه .. واحتد النقاش بينهما أكثر .. صوت كوفى المبحوح يخرج من بين شفتيه الغليظتين ، وصوت رايلى الرفيع يخرج من أنفه الضيق ، وأنا واقف بينهما لا أتدخل .. إلى أن انتهى النقاش بأن رفع رايلى حقيبته من على المقعد المجاور للنافذة ، وجلس فيه كوفى ، وجلست بجانبه فى المقعد الأوسط ، وجلس رايلى فى المقعد الثالث بجانبى .

وطرنا .. والطائرة ترتعش وتهتز كأنها عصفور ينتفض من البرد .. وكوفى يطل من النافذة ، وأنفاسه تتهدج فى عصبية .. ثم فجأة التفت إلىّ رايلى ، وقال فى حدة ورذاذ لعابه ينطلق فى وجهى :

— يجب أن تعلم أن كونك أبيض ، لا يعطيك أى امتياز هنا ..

والتفت إليه رايلى وقال من طرف أنفه :

– إنى لم أتصرف كرجل أبيض ، ولكنى تصرفت كصاحب حق ..

وقال كوفى :

– لم يعد للرجل الأبيض أى حق فى أفريقيا .. لا على أرض أفريقيا ، ولا فى سماء أفريقيا ..

وقال رايلى :

– ما الذى أثار موضوع الأبيض والأسود الآن .. و ..

وقاطعه كوفى :

– إنه دائماً موضوع الأبيض والأسود ، سواء كانت المعركة حول احتلال مقعد فى طائرة أو حول احتلال بلد ..

وقال الانجليزى البارد :

– إنه دائماً موضوع التقدم والتأخر .. الذين احتلوا البلد كانوا أكثر تقدماً من أهلها ، وإلا لما استطاعوا احتلالها .. وأنت تسمى التقدم أبيض والتأخر أسود ..

وصرخ كوفى :

– هذا منطق الاستعمار .. إن غانا تقدمت بعد أن خرج منها البيض ، أضعاف تقدمها خلال سنوات استعمارهم لها ..

وقال رايلى فى سخرية باردة :

– البيض لم يخرجوا من غانا .. وأنتم لا تزالون فى حاجة إلى أوربا ..

وقال كوفى وهو يحاول أن يهدأ حتى لا يفقد أعصابه كمثقف :

– إننا نتعامل مع البيض على مستوى إنسانى .. ولكن البيض لا يستطيعون أن يضعوا أنفسهم فى إطار الإنسانية .. إنهم يتوارثون أحاسيس أجدادهم من القبائل البربرية التى سكنت أوربا .. الأحاسيس العنصرية الضيقة الغبية ..

وأحسست بصواريخ من الهواء البارد تنطلق من مكان ما من الطائرة .. ومر مساعد الطيار ، فاستوقفته قائلاً :

– هل أستطيع أن أجد عندك فرخاً من الورق الكرتون ؟

ونظر لى مساعد الطيار فى دهشة ، وقال :

– لماذا ؟

قلت :

– حتى أسد به النافذة فلا يتسلل إلينا الهواء !!

ونظر إلىّ مساعد الطيار وهو يلوى شفتيه ازدراء ، ثم ابتعد دون أن يجيبنى ..

وعدت أتتبع المناقشة بين كوفى ورايلى .. وكان كوفى يقول :

– ما هى المشكلة فى جنوب أفريقيا .. أبيض وأسود .. ما هى المشكلة فى الكونغو .. أبيض وأسود .. ما هى المشكلة فى روديسيا .. أبيض وأسود ..

وقال رايلى وقد ازداد احتقان وجهه وهو يكتم غيظه :

– إنها دائماً مشكلة مصالح .. إن لنا مصالح يجب أن نحتفظ بها ونحميها ..

وقال كوفى :

– مصالح .. ما هى مصلحتكم فى أن تخصصوا للبيض عربات لا يركبها السود .. ما هى مصلحتكم فى أن تحرموا على السود ارتياد الفنادق التى يقيم فيها البيض .. ليس فى كل هذا عنصر المصلحة .. وإنما هو التعصب الغبى .. أحاسيس بربرية ..

وقال رايلى :

– إذا كان الأبيض لا يريد أن يقيم مع الأسود فى فندق واحد ، فلماذا لا يبنى الأسود فندقاً آخر لنفسه .. وتنتهى المشكلة ..

وقال كوفى :

- لا .. إنها ليست مشكلة فنادق .. إنها مشكلة الإنسانية .. مشكلة محاولة الأبيض التعالى على الأسود ..وإذلاله .. حتى يبقيه فى مستوى يمكنه من استعماره .. مستوى العبيد .. مستوى الخدم .. ولكن كل هذا سينتهى قريبا .. وسترى ..

وبدأت قطرات من الماء تتساقط من سقف الطائرة .. وأصابنى الهلع .. خيل إلىّ أن الطائرة ستغرق فى المطر .. ولكنى عندما نظرت خلال النافذة ، لم أر السماء تمطر .. واشتد بى الهلع .

وجاء مساعد الطيار ووضع جردلاً فارغاً فى الممر الذى يتوسط الطائرة ، لتتجمع فيه المياه المتساقطة .. وعندما سأله رايلى عن مصدر هذه المياه ، أجابه بأن جهاز تكييف الهواء داخل الطائرة قد أصابه عطل وهذه المياه تتساقط منه ..

ولم أعد أتتبع المناقشة الحادة بين كوفى ورايلى .. تشبثت بمقعدى فى خوف، من أن تسقط الطائرة فى أى لحظة .. وسهام الكراهية والتحدى المتبادلة بين كوفى ورايلى تمر من أمام صدرى ، وتملأ أذنى بالطنين ..

●●●

وحدثت المعجزة ..

وصلنا سالمين ..

ووجدنا أنفسنا نحن الثلاثة .. الأسود ، والأبيض ، والأسمر ، (أى أنا) فى سيارة واحدة تحملنا من المطار إلى قلب مدينة داكار .. المدينة التى تركت فرنسا عليها بصمات أصابعها العشر ..

وهدأت حدة المناقشة ..

وساد بيننا هذا النوع من النفاق الثقافى ..

وبدأ كوفى يشرح لنا معالم المدينة .. هذا هو مبنى البرلمان .. أحدث برلمان فى العالم ، وقد أقيم مبناه على الطراز الهندسى

الحديث .. طراز لا يعبر عن شخصية أفريقيا ، ولا حتى عن شخصية فرنسا .. إنما يعبر عن الذوق الشخصى للمهندس الفرنسى الذى وضع التصميم .. وهذا هو مبنى المحكمة العليا .. إنه أيضاً على الطراز الحديث ، ويقف على درجاته الرخامية بعض المحامين .. بعضهم أسود وبعضهم أبيض ، وقد ارتدوا جميعاً الروبات السوداء ، والقبعات المربعة التى يرتديها المحامون الفرنسيون فى محاكم فرنسا .. وهذا هو الجامع الكبير .. إنه يبنى منذ عشر سنوات من تبرعات المسلمين ، ولكنه لم يتم بعد .. وتسعون فى المائة من أهالى السنغال . مسلمون ، ورئيس جمهوريتها ـ بالانتخاب ـ مسيحى !

وأتلفت من داخل السيارة إلى أفواج المواطنين الأفريقيين وهى تسعى على الأقدام فى صمت ، فيخيل إلىّ أنها ترسم حبلا أسود غليظاً يلتف حول المدينة ذات الطابع الفرنسى ليخنقها .. ورائحة أفريقيا .. الرائحة الحادة الزاعقة تملأ أنفى ، وأحس أنها تتجمع فى زوبعة تكاد تقتلع هذه الحضارة الدخيلة لتقيم مكانها حضارة أفريقية صميمة ..

واتجهنا إلى الفندق الذى اختاره لنا كوفى ..

وربما اختار لنا هذا الفندق بالذات لأنه يسمح للزنوج بالإقامة فيه ..

وبعد أن قيدنا أسماءنا فى سجل الفندق ، التفت كوفى إلى رايلى وبين شفتيه ابتسامته المتعالية المستفزة ، وقال بصوته المبحوح و « البايب » بين أسنانه :

- أرجو ألا يزعجك أن تقيم فى فندق يشاركك فيه بعض الزنوج ..

ورد رايلى بصوته المزعج الذى ينطلق من أنفه كصفارة قطار قديم :

– يكفى ألا يشاركنى أحد غرفتى .

• • •

والتقينا فى المساء حول مائدة فى بهو الفندق ..

كوفى يشرب الويسكى ..

ورايلى يشرب البيرة ..

وأنا أصب كأساً من الليمونادة الساخنة على معدتى المريضة ..

وبدأ النقاش مرة أخرى بين رايلى وكوفى .. حاول كل منهما فى بادىء الأمر أن يتجنبه ، ولكنهما ما لبثا بعد الكأس الثانية ومع الكأس الثالثة أن احتد النقاش بينهما أعنف وأقسى مما كان خلال رحلتنا بالطائرة ..

أبيض ..

أسود ..

أبيض ..

أسود ..

وأحاول أن أخفف من حدة المناقشة ، وأن أنقلها إلى جانبها الموضوعى ، ولكن عبثاً .. المناقشة تحتد .. والألفاظ الجارحة تصبح أكثر جرأة .. وأصبحت أنتظر فى كل لحظة أن يرفع كوفى كأسه ويشق بها وجه رايلى ، أو يرفع رايلى زجاجة البيرة ويحطمها على رأس كوفى ..

ولكن ..

حدث العكس ..

وقف كوفى ، وعدل « البايب » بين أسنانه ، وقال :

– لماذا لا نذهب إلى مكان آخر ..

ووقف رايلى بعده وقال ولعابه يسيل فوق سيجاره الأسود :

– فكرة حسنة .

ودفع كل منا حسابه ، وخرجنا من الفندق ، وقد قفزت الشرايين الحمراء فى بياض عينى كوفى من أثر الويسكى ، وتهدلت شفتى رايلى من أثر البيرة ، وتلوت معدتى من أثر الليمونادة الدافئة ..

وسرنا قليلا فى الشارع القريب ، ثم وقف كوفى يحادث سائق تاكسى بإحدى اللهجات المحلية ، ثم دعانا للركوب ..

وحملنا التاكسى إلى أطراف المدينة .

ثم وقف بنا عند أبواب حانة ، تشبه فى مظهرها حانات شارع كلوت بك القديمة ..

ودخلنا ..

مجموعة من الرجال والنساء ، البيض والسود ، ينتثرون حول المائدة الخشبية الرخيصة ، كأنهم مجموعة من حجارة الشطرنج البيضاء والسوداء منتثرة فوق رقعة يلعب عليها اثنان من الهواة المبتدئين .. وفى الركن فونغراف عتيق تدور عليه أسطوانات تحمل ألحاناً فرنسية قديمة .. وعلى « الكيس » يجلس رجل فرنسى سمين مشعر الذراعين ينظر إليك كأنه يشق جيوبك بعينيه ..

وجلسنا نحن الثلاثة فوق مقاعد « البار » العالية ..

وخلف البار امرأتان ..

امرأة فرنسية بيضاء .. تصبغ شعرها بلون أصفر فاقع .. عجوز .. ربما كانت فى الخمسين من عمرها .. يبدو أنها سفحت شبابها فى أزقة باريس ، وجاءت تبيع شيخوختها فى دكار .. وكان اسمها ، على ما أذكر ، « سوزيت » .. اسم يصغر شكلها بمائة عام ..

والمرأة الأخرى أفريقية .. شابة .. ربما كان عمرها لا يزيد على العشرين .. مشدودة القوام ، كأنها منحوتة من خشب العنبر .. تلمع بشرتها الأبنوسية كأنها ليل ينعكس عليه ضوء القمر .. وتلمع أسنانها البيضاء كومضة البرق كلما ابتسمت .. وكان اسمها « أدوا » .

وطلب كوفى كأساً من الويسكى ..

وطلب رايلى زجاجة بيرة ..

ولم أجد عصير ليمون دافيء ، فطلبت زجاجة مياه إفيان ..

وقال كوفى وعيناه المحمرتان تكادان تسقطان فى كأسه :

– إن تقدم البيض العلمى لا يعنى تقدمهم الإنسانى .. إن العقل عندما ينطلق بعيدا عن الإنسانية ، يضع نفسه فى خدمة الهمجية .. وقال رايلى وشفتاه المتدليتان لا تكادان تقويان على حمل ألفاظه :

– إن العقل المتأخر لا يستطيع أن يضع نفسه فى خدمة الإنسانية ولا فى خدمة الهمجية ..

وبدأت المناقشة من جديد ..

أبيض ..

أسود ..

أبيض ..

أسود ..

والمرأتان تنقلان عيونهما وابتساماتهما بيننا نحن الثلاثة ، وتتظاهران بتتبع المناقشة دون أن تفهما حرفاً واحداً منها .. فكلتاهما تتحدثان بالفرنسية ، ولا تفهمان شيئاً من الانجليزية التى نتحدث بها ..

وفجأة .. وبلا مقدمات .. وفى وسط المناقشة .. قفز كوفى من

على مقعده واقفاً ، والتفت إلى سوزيت وقال بفرنسية ركيكة .. وبلهجة آمرة وعيناه أشد احمراراً :

– سوزيت .. هيا بنا ..

وخرجت البيضاء العجوز المصبوغة الشعر من خلف البار ، ووضعت ذراعها فى ذراع كوفى ، واتجها إلى باب جانبى مسدل عليه ستارة سوداء قذرة ، ويؤدى إلى عدة غرف أقيمت خلف الحانة ..

وضحك رايلى ضحكة مخمورة انسكبت من بين شفتيه المتهدلتين ، وصاح بفرنسية أشد ركاكة ، فى وجه المرأة السوداء كقطعة الأبنوس :

– أدوا .. ماذا ننتظر !!

وخرجت إليه أدوا ..

• • •

وسمرتنى الدهشة فى مقعدى .. وأنا أنظر خلف كوفى وسوزيت ، وخلف رايلى وأدوا .. أنظر إلى المرأة البيضاء فى ذراع الرجل الأسود .. وإلى المرأة السوداء فى ذراع الرجل الأبيض .

وانحنيت فوق معدتى المريضة ، وأحنيت رأسى فوق كفى .. أفكر .. أفكر فى الإنسان .. الإنسان الأبيض والأسود ..

إلى أن عاد رايلى ..

ثم عاد كوفى ..

وعادت المرأة السوداء ..

وعادت المرأة البيضاء ..

وقال كوفى وهو يطلب كأسه الأخيرة :

– إنى ما زلت مصراً على أن التقدم العلمى لا يعنى تفوق البيض كجنس ..

وقال رايلى :

– وأنا مـا زلت مــصـراً على أن الزنوج يعـانـون من عـقـدة التأخر ..

و .....

وصرخت ومعدتى المريضة تتلوى :

– أدوا .. أعطينى بلودى مارى ..

و « بلودى مارى » أى « مارى الدامـية » أو « مارى الدموية » هو نوع من الكوكـتيـل ، مكون من الفودكـا الروسـية وعـصيـر الطماطم ، يصلح للمعدة المريضة ..

وهزت أدوا رأسـها فى أسف ..

إن الفودكا الروسية لم تصل إلى دكار بعد ..

كـوبـا

عـود القصب..

مدينة « كامـاوى » .. عاصمة مقاطعة كاماوى ، إحـدى مقـاطعات جـزيرة كـوبا .. وكنت أتمشى فى الميـدان الكبيـر الذى يتـوسط المـدينة أنا وصـديقى الكوبى مانويل ..

والميدان واسع يتصدره مـبنى دار الكتب ، وقد أقيم على طراز مبنى الكابيتول الأمريكى ، وتتوسطه حديقة كبيرة أقيم فيها كشك للمـوسـيقى من الرخـام ، على الطراز الـيونانى القـديم ، وحـول الميدان مـجموعـة من محال السـاندويتش والمقاهى ، وبينها مـقاه ثقافـية .. مـقهى للعب الشطرنـــج .. ومقهى لـلقراءة أقيـمت على جـدرانه أرفف كـثـيـرة تزدحم بالكتب والمجـلات ، وكلهـا كـتب ومجلات سـياسية ودعائيـة .. ومقهى آخر أشـبه بمعرض الرسم تغطى جدرانه لوحات من رسم زبائن المقهى أنفسهم ..

وجلست مع مانويل فى مقهى الشطرنـج نلعب دوراً ..

ومـانويل نسخـة حرفـية من صـورة المثـقف الشيـوعى كمـا تصورها رسـامو الكاريكاتير فـى العالم أجمع .. القـوام الرفيع .. الرفيع جـداً .. جلد على عظم .. والرأس الضـخم الذى يهتـز فوق العنق النحـيل حـتى يخيل إلـيك أنه سيـقع من فـوقه .. والوجـه الممصـوص .. والعينان المكدودتان اللتـان ترتعشـان فى عصبـية خلف زجاج النظارة السميك .. والابتسامـة الساخرة المتعالية التى

• عود القصب .. •

تتدلى من بين الشفتين الرفيعتين الباهتتين .. والنقاش الدائم الذى لا يهدأ ولا يكف أبداً .. وهو عـضو فى الحزب الشيـوعى وأستاذ فى جامعـة هافانا .. وأحد المسئولين عن شـئون الدعوة والفكر .. ويبدو أن له مكانة خاصة ، فقد كان يستقبل فى كل مكان باحترام كبيـر .. احترام تحس أن فيـه كثيراً من الرهبـة والخوف .. ورغم ذلك فعمره لا يزيد على السابعة والعشرين ..

وقال لى مانويل ونحن ننقل قطع الشطرنـج :

– ما رأيك .. هل تأتى معى غداً لنقطع القصب ؟

ورفعت إليه عينى من فوق قطع الشطرنـج ، وقلت :

– بكل تأكيد .. أكون سعيداً لو أخذتنى معك ..

وعادت رءوسنا تنحنى فوق رقعة الشطرنـج .. فى صمت ..

وكنت أعلم أن حكومـة كوبا والحـزب .. قد جـعلا من مـوسم جمع القـصب ـ ويسمونه هناك « زفـرا » ـ دعوة شعـبية عـامة ، جندت لها جميع أجهزة الدولة وإمكانيـاتها .. الإذاعة تتحدث أربعاً وعشـرين سـاعة ، عن « الزفـرا » .. والتليفـزيون .. والسينمـا .. وإعلانات الحائط .. وذهب كاسـترو إلى دار الإذاعة وقضى هناك ست ساعـات ، كتب بنفسه خـلالها كلمات أغنيـة تدعو الناس إلى الاشتراك فى جمع القصب ، أذيعت على نغـمات لحن شعبى اسمه « مـوزمبـيكى » .. ووزارة العمل أغلـقت أبوابها وصـحب الوزير جـميع الموظفـين حـيث قضـوا أسـبوعـاً فى الحقـول يجـمعـون القصب .. والجـامعات والمدارس منـحت طلابها إجازة للاشـتراك فى جمـع القصب .. و .. و .. كانت الـدعوة إلى جمع القـصب من القوة بحيث أصبحت أشبه بالدعوة للحرب ، الذى يتخلف عنها من القادريـن يكاد يتهم بالخـيانة .. أو السلبـية .. أو الانعـزالية .. أو الرجعية .. أو بأية تهمة من التهم المسجلة فى قاموس الماركسية ..

وقد اشترك فى جمع القصب خمسة وسبعون ألف مواطن .. وربما اشترك الكثيرون فى جمع القصب تحت ضغط الخوف ، أو بدافع النفاق .. ولكن الدعوة نجحت .. وجمعت كوبا محصولاً من القصب لم تجمعه فى أى عام آخر ..

و .....

ونقلت الحجر الأخير فوق رقعة الشطرنج .. كش .. مات .. غلبت مانويل ..

ورفعت إليه عينى وأنا أبتسم فى تواضع كأنى أعتذر له ..

واتسعت الابتسامة الساخرة بين شفتى مانويل ، وقال :

– إنك شديد الذكاء !!

قلت :

– لا .. لا أعتقد أنى ذكى .. إن مجموعة النقلات التى رأيتها حفظتها « صم » منذ خمسة عشر عاما .. وما زلت أنتصر بها ..

قال :

– « الصمام » أيضاً يعتبر إنساناً ذكياً ..

قلت :

– لا أظن .. الصمام قد يغلب فى الجولة الأولى ، ولكنه لا يستطيع أن يغلب فى الجولة الثانية .. لأن طريقته فى اللعب تنكشف ، ولا يستطيع أن يبتكر طريقة أخرى ، لأنه ليس ذكياً ..

قال وهو ينظر إلىّ من خلال زجاج نظارته السميك كأنه يحاول أن يثقب رأسى :

– إن « الصم » يعوضك عن الذكاء .. فالناس ليسوا فى درجة ذكاء واحدة .. ولكى ترتفع إلى مستوى الأذكياء يكفى أن « تصم » إنتاجهم الذهنى .

قلت وأنا أحس أن الحوار يتجه بعيداً عن لعبة الشطرنج :

– إن « الصم » لا يرفعك إلى مستوى الأذكياء ، ولكنه يجعلك تعيش فى ظلهم .. وأنا أفضل أن أكون نصف ذكى ، على أن أعيش عالة على ذكاء غيرى ..

قال وقد أصبح كل منا يفهم ما يقصده الآخر :

– إنك فى حاجة إلى أن « تصم » إنتاج الأذكياء ، حتى تتخذ من هذا الانتاج ثقافة تعينك على أن تنطلق بذكائك ..

قلت كأنى أعفيه من الاستمرار فى هذا الحوار الذى قد يحتد إلى أن يغضب أحدنا :

– اتفقنا .. أوافقك على أن « الصم » قد يصنع إنساناً مثقفاً ، ولكنه قد لا يصنع إنساناً ذكياً .. والمثقف الذكى هو الذى يضيف شيئاً جديداً إلى أفكار غيره من المثقفين الأذكياء ، والمثقف الذى لا يمتاز بالذكاء هو الذى يكتفى بترديد أفكار غيره ، بلا إضافة . بلا تطور .

ونظر إلىّ مانويل طويلاً كأنه يفهمنى جيداً ، ثم هز رأسه الكبير كأنه قرر أن يعفينى من الرد علىّ رحمة بى ، وقال :

– دعنا نلعب دور شطرنج آخر ؟

قلت :

– لا .. لأن ثقافتى فى الشطرنج لا تكفى إلا لدور واحد .. لو لاعبتك دوراً آخر فسأضطر أن أعتمد على ذكائى .. وستغلبنى .. لأنى لست ذكياً .. ولذلك فإنى أفضل أن أحتفظ بانتصارى الأول ..

قال :

– هذا دليل آخر على ذكائك !!

قلت :

– هذا هروب .. هروب من هزيمة أنا واثق منها ..

قال ضاحكاً بلا شماتة ولا مرارة :

– ما دمت قد خفت من الهزيمة فقد اعترفت بها ..

قلت وأنا أزيح مقعدى وأقف على قدمى :

– هذا صحيح .. هزمتك فى دور ، واعتبر نفسك هزمتنى فى دور آخر .. خالصين ..

وخرجنا من المقهى نضحك ، وذراع مانويل فى ذراعى .. وقد كانت هذه هى عادتنا – مانويل وأنا – منذ أن التقينا فى هافانا .. نتناقش دون أن يواجه أحدنا الآخر بصراحة .. نظل نلف وندور دون أن نقترب من النقطة التى قد نختلف عندها اختلافاً يؤدى إلى تمزيق متعة أحدنا بصحبة الآخر .. وقد كان كل منا يعرف أنه مختلف مع الآخر اختلافاً كبيراً ، ورغم ذلك فقد كان كل منا مقتنعاً بأن هناك أساساً أعمق ، يربطنا معاً فى خيط واحد .. أساس من الإيمان بالإنسان ، والتقدم بالإنسان ، والعدالة للإنسان ، والعلم للإنسان .. وكل منا يحترم حق صاحبه فى تفكيره .. وكل منا يؤمن بأن الآخر مخلص فى إيمانه لا ينافق فيه .. ولذلك بقيت صداقتنا حلوة ، ممتعة ، مفيدة لكلينا . وأصبح خلافنا يزيد صداقتنا متعة ، ويزيد من فائدة صحبتنا .

وأوصلنى مانويل حتى باب الفندق الذى يقع فى نفس الميدان ، وقال لى وهو يشد على يدى فى حرارة :

– غداً صباحاً .. سأمر عليك فى السادسة ..

قلت فى دهشة :

– السادسة ؟!

قال فى حزم كأنه يحذرنى من أن أناقشه :

– السادسة ..

• • •

وجاء مانويل فى الصباح .. السادسة تماماً .. فى سيارته الكاديلاك طراز عام ٥٩ – وآخر طراز من السيارات الأمريكية وصل إلى كوبا هو طراز عام ١٩٦٠ – وبعدها قطعت العلاقات بين البلدين ، وعاشت السيارات الأمريكية فى الجزيرة المتحررة بلا قطع غيار .. وتعودوا فى كوبا أن يفكوا سيارة ليستعملوا قطعها فى إصلاح سيارة أخرى .. ثم اضطروا أن يلقوا كثيراً من السيارات فى عرض الشارع لأنهم لا يجدون لها قطع غيار ، رغم أن بناءها لا يزال سليماً .. وكانت سيارة مانويل أنيقة فى مظهرها .. تلمع من شدة نظافتها .. ولكنها لا تكاد تتحرك حتى توقن أنه لم يبق فى عمرها سوى أسابيع ثم تلقى هى الأخرى فى عرض الشارع . كانت تزفر وترتعش كأنها جندى أمريكى فى أحد ميادين فيتنام .

وكان مانويل يرتدى بنطلوناً قصيراً « شورت » وقميصاً على اللحم ، وحذاء ضخماً وجورباً ، ويمسك فى يده قبعة عريضة من قبعات الفلاحين : « سومبريرو » .. كان يبدو كأنه عالم آثار فى طريقه إلى الصحراء ليفتح مقبرة ، أكثر منه مزارعاً فى طريقه لجمع القصب ..

وأعطانى مانويل سومبريرو أخرى ، قائلاً فى هدوء كأنه لا يزال نائماً :

– ستحتاج إليها ..

وسارت بنا السيارة ، تزفر وترتعش .. حتى أوصلتنا إلى خارج المدينة .. وهناك التقينا بقافلة من السيارات اللورى الكبيرة .. صناعة روسية .. مزدحمة بالشبان والشابات .. كلهم يضحكون ويهللون ، ويصرخون ..

وانتبهنا – مانويل وأنا – على مرأى الوجوه الضاحكة المهللة ..

وتركنا سيارتنا ، وقفزنا فى أول لورى لحقنا به ، وحشرنا أنفسنا بين الشبان والشابات ..

وتحركت القافلة تشق الطريق الممتد عبر الأرض الخضراء .. كل شىء أخضر .. والسهول من حولنا ترتفع وتنخفض كأن الدنيا تلعب فى مرح .. وأشجار الموز ، وجوز الهند ، والنخيل الأبيض والأناناس ، والسيلاس ، تقف مصطفة كأنها تصفق لنا ، وتهتز وراءنا كأنها تحاول أن تلحق بنا ، وترتفع فى السماء كأنها ترفع أذرعها إلى الله بالدعاء لنا .. وارتفع من بين البنات والأولاد المحشورين فى اللورى صوت جيتار .. لحن سريع مرح .. وارتفع صوت الجميع فى أغنية مرحة صاخبة ، وبدءوا يصفقون بأيديهم ويدبدبون بأقدامهم ، دبات منتظمة منغمة على الطريقة الاسبانيولية .. والتفت إلى صديقى مانويل .. إنه يصفق ويدبدب ، ويغنى بأعلى صوته ، ونظارته تسقط على أنفه بين الحين والحين .. وأحسست بدمائى تتحرك بقوة وحماس فى عروقى .. وصفقت أنا الآخر .. ودبدبت . ورفعت صوتى أجارى اللحن المرح الصاخب دون أن ألفظ كلمات الأغنية التى لا أعرفها .. إنى أحس بشبابى كله يعود إلىّ .. أحس بالقوة .. أحس بالدماء تملأ ذراعى حتى خيل إلىّ أنى أستطيع أن أجمع قصب كوبا كله فى لفة ذراع واحدة .

ووصلنا إلى الحقل الذى سنعمل فيه ..

سبقنا إليه عشرات الشبان والشابات .. بعضهم يبيت فى الحقل منذ عدة أيام .. وقد مدوا بين فروع الشجر قطعاً من القماش الثقيل ينامون عليها .. ومجموعة من البنات التففن حول نار موقدة تحت قدر كبير يعددن حساء الفول الأسود .. وهو كالفول الذى ندمسه ، ولكنه أسود ، وحباته أصغر حجماً .. وهو

الغذاء الشعبى فى كوبا ، كالعدس عندنا .. يأكلونه مع الأرز .. ويطبخونه كأطباق العدس .. ويصنعون منه حساء لذيذاً شهياً .. وفرقة من ثلاثة شبان يعزفون الجيتار تطوف بجماعات الشبان والشابات .. وحلقة تتوسطها فتاة ترقص على صفقات الأيدى .. وعربات صغيرة تجرها ثيران تحمل براميل الماء .. والعربة مزينة بالورد .. وعند أذن كل ثور وردة .. إنه ليس ميدان حرب .. إنه مهرجان .. مهرجان مرح صاخب ..

ووقفنا فى طابور ، أمام القدر الكبير الممتلىء بحساء الفول الأسود وفى يد كل منا وعاء من الصاج .. وفتاة حلوة شعرها مضفر على كتفها ، واقفة بجانب القدر تملأ لكل منا وعاءه .. مغرفة واحدة .. لقد طمعت فى مغرفتين ، ولكنى خجلت أن أطلب ، خفت أن أربك ميزانية المهرجان كله .. إنه ألذ حساء ذقته فى حياتى .

ثم وزعنا على خطوط القصب ، وأعطى كل واحد منا « ماتشته » ، وهو سكين ثقيل طويل أشبه بالساطور ، ولكنه أطول منه ، يقطعون به القصب ..

ووقف مانويل وفى يده الماتشته ، وعلى رأسه السومبريرو العريضة . ينظر إلى أعواد القصب نظرة علمية ، كأنه يبحث فى ذاكرته عن نظرية تشرح طريقة قطع القصب ..

ووقفت بجانبه أرقبه حتى أفعل مثله ..

وتردد مانويل طويلا .. كان يرفع ذراعه بالماتشته إلى أعلى ، ثم يعود ويخفضها ، كأن قلبه لا يطاوعه على ذبح عيدان القصب .

وأنا ما زلت واقفاً أرقبه فى صمت .

واقترب منا فلاح كوبى عجوز .. أسمر كالبن المحروق ، شققت وجهه التجاعيد ، كأن وجهه قطعة من الأرض الجافة العطشى ..

يضع على رأسه سومبريو قديماً متآكلة ، ويرتدى زى الفلاحين .. السروال الأبيض ، وقميصاً أبيض واسعاً يشبه « الوايبيرا » وهو القميص الذى يرتديه أهل المدن ، ولكنه أوسع وأرحب .. وفى يده ماتشته ..

وهز مانويل رأسه يحيى الفلاح العجوز فى صمت ، وعاد ينظر إلى عيدان القصب فى تردد ..

ولم يرد الفلاح العجوز تحية مانويل . ظل مركزاً عينيه عليه ينظر إليه فى صمت .. وخيل إلىّ أن فى صمته كثيراً من القرف والازدراء ..

ومانويل لا يزال يبحث عن نظرية يقطع بها عيدان القصب .

ورفع الفلاح العجوز ذراعه بالماتشته ، وانحنى حتى كاد رأسه يلامس الأرض ، ثم ضرب ضربة واحدة قطع بها ثلاثة عيدان من القصب ..

ثم رفع العجوز رأسه ونظر إلى مانويل ، كأنه يقول له :

– هكذا يقطعون القصب ..

ورفع مانويل الماتشته وانحنى نصف انحناءة ، وضرب عيدان القصب .. ولكن ضربته أصابت عود القصب فى منتصفه ، لا عند الجذر ، وكانت ضربة ضعيفة ثنت العود ولكنها لم تقطعه ..

وقلب الفلاح العجوز شفتيه فى قرف شديد .. وانحنى مرة ثانية حتى كاد يلامس الأرض ، ورفع الماتشته بذراع ولوى عيدان القصب بالذراع الأخرى . وضرب ضربته ، فقطع خمسة عيدان .. فعل هذا كأنه يكرر الدرس على تلميذ غبى ..

وزم مانويل شفتيه فى عناد ، وانحنى على قدر استطاعته ، وضرب العود الذى سبق أن ضربه .. فانثنى العود من موضع آخر ولم يقطع ..

وصرخ الفلاح العجوز :

– إنكم هكذا تفسدون المحصول ..

ثم انحنى مرة ثالثة ، ورفع الماتشته وقطع بضعة عيدان ، القاها بعيداً . ثم وقف ينظر إلى مانويل .. ومانويل ينظر إليه فى مسكنة وبلاهة كأنه يعتذر له ، ويستمهله قبل أن يصدر حكمه عليه ..

وقررت أن أبدأ التجربة ..

نظرت إلى الفلاح العجوز لألفت نظره إلىّ .. ورفعت الماتشته إلى أعلى ذراعى ، وهويت بها ، وإذا بى أهوى معها .. أسقط على الأرض وسط الطين .. لقد كانت الماتشته أثقل مما قدرت ، ولم أكن قد ثبت قدمى بحيث أحفظ توازنى .. فأخذتنى الماتشته معها إلى الأرض ..

ونظر الفلاح العجوز إلىّ فى غيظ ، ثم بصق على الأرض بصقة كبيرة ..

وضحك مانويل ضحكة صاخبة ..

ثم مد يده إلىّ ليساعدنى على النهوض قائلا :

– لا تيأس .. ستتعلم ..

والقيت الماتشته بعيدا وأنا أنظر إلى الفلاح العجوز فى غيظ ، وقلت :

– لا أريد أن أتعلم جمع القصب .. فى بلادنا يحتاجون إلينا فى جمع القطن ..

وعاد مانويل يضحك ..

ثم قطع ضحكته ونظر إلى الفلاح العجوز .. ثم نظر إلى أعواد القصب فى تحد .. ورفع الماتشته وهوى بها على عود القصب فقطعه ..

وابتسم العجوز ابتسامة لا تخلو من استهانة وابتعد .. وانهال مانويل على أعواد القصب ، يمزق بعضها ويقطع بعضها .. ويقطع عوداً من نصفه ، وعوداً من جذره ..

وبدأ يتعب ..

إنى أكاد أسمع أنفاسه وهى تلهث .

العرق ينتثر على وجهه كحبات الكريستال .

والألم ..

شفتاه المنفرجتان تتأوهان من الألم ..

عيناه الجاحظتان تصرخان من الألم ..

ولكنه لا يتوقف ..

إنه الآن يقطع القصب بجنون .. إنه يضرب وهو يزوم .. كأنه يقطع رقاب أعدائه .. ويخبط بالماتشته خبط مجنون ، كأنه دون كيشوت يحارب جيوشاً يصورها له وهمه .. إنه لم يعد يرى ماذا يقطع .. إنه يقطع أى شىء .. ويضرب أى شىء ..

ولم يعد يرانى ..

لم يعد يحس بى .. لم يعد يحس بشىء .. وسقطت نظارته على الأرض فالتقطها دون أن يتوقف عن الضرب .. ومرت فتاة تحمل إناء ماء ، لعل أحدنا يريد أن يشرب ، ولم يتوقف مانويل عن القطع .. ومرت فرقة الجيتار تعزف لجماعى القصب ترفيهاً عنهم ، فلم يحس بهم مانويل وربما لم يسمع موسيقاهم .. وظهره .. ظهره المحنى على الأرض ، خيل إلىّ أنه تصلب فى انحناءته ..

وكنت أنظر إلى مانويل مبهوراً به .. فى إعجاب ..

إنه لم يكن يملك أى مؤهلات لقطع القصب إلا إرادته .. وقد أثبت أن إرادته أقوى من ضعف جسمه ، وأقوى من جهله بقطع القصب .. لقد استطاع بإرادته أن ينقل نفسه إلى عالم

اللاشعور .. ارتفع بإرادته فوق التعب وفوق الألم .. وربما فعل ذلك إحساساً منه بمسئوليته كعضو فى الحزب .. ربما قدر أن انسحابه قد يضعف إرادة باقى الشبان والشابات وهو فى مركز قيادى منهم .. ربما قدر أن عدم قدرته على الاستمرار قد تكون شاهداً على أن الحزب يطلب من الشعب المستحيل .. ربما .. ربما .. مهما كانت الأسباب .. إنه بطل ..

ومر الفلاح العجوز ..

ونظر إلى مانويل وهو مندفع فى جنون يقطع القصب .. ثم نظر إلى المحصول الذى جمعه .. ولوى شفتيه فى امتعاض .. وقرف .. وذهب ..

ودق ناقوس بعيد .

إنه ناقوس الغداء ..

وقمت إلى مانويل وأمسكت بذراعيه كأنى أرحم عيدان القصب منه . وأرحمه من عيدان القصب ..

وتنبه إلىّ مانويل .. نظر إلىّ كأنه يسألنى ، أين هو .. وقلت فى حنان :

– الغداء ..

وألقى مانويل الماتشته من يده .. وراقبته وهو يعانى ألماً حاداً حتى يفرد ظهره .. ووضعت ذراعى فى ذراعه لأساعده على المشى ، دون أن أشعره .. وظل صامتاً .. وعندما خرجنا من بين عيدان القصب إلى حيث بقية الرفاق ، نزع مانويل ذراعه من ذراعى ، وشد ظهره ، ووضع على شفتيه ابتسامة كبيرة .. ثم خبط على ظهر أحد الشبان فى قوة ، وصاح وهو يضحك ضحكة كبيرة :

– كم طناً جمعت .. إنى أتحداكم جميعاً .. أراهنك على زجاجة روم .. قل للرفاق أن ينتظرونى عند الميزان ..

●●●

وعدنا .

ومانويل مستلق على ظهره داخل السيارة الكاديلاك القديمة ، مغمض العينين ، جاف كعود القصب الممصوص ..

وقلت له برفق :

– هل سألقاك فى المساء ..

وفتح عينيه ، وتدلت على شفتيه ابتسامته الساخرة المتعالية ، وقال :

– لا أظن ..

وعاد وأغمض عينيه ..

كان مرهقاً إلى حد الإعياء ..

ولكنه كان سعيداً ، فخوراً بنفسه .

●●●

وسافرت فى الصباح التالى إلى مقاطعة أورينتى ، وسافر مانويل عائداً إلى هافانا ..

وبعد أسبوع عدت إلى هافانا ، وذهبت لزيارة مانويل فى مكتبه بالجامعة ، واستقبلنى مهللاً صائحاً :

– هل تدرى كم جمعنا من محصول القصب .. ستة ملايين .. ستة ملايين طن .. بزيادة مليون طن عن العام الماضى .. وفى العام القادم سنجمع عشرة ملايين طن ..

وأخذ يحدثنى عن محصول القصب ، وعن صناعة السكر ، وعن ثمن البيع ، وعن العملة الصعبة التى سيدرها القصب على

كوبا .. و .. و .. و .. وكان يتحدث بحماس عجيب كأنه هو الذى جمع وحده هذه الملايين من أطنان السكر ..

وعندما هممت بالانصراف ، قال لى :

– انتظر أن إيسوس سيأتى الآن .. هل تعرف إيسوس .. إنه الفلاح العجوز الذى رافقنا فى قطع القصب .. لقد طلب مقابلتى منذ أيام .. وسيكون هناك بعد دقائق ..

وما لبث أن فتح الباب ودخل إيسوس ..

إنه يلبس نفس اللباس الذى رأيته به فى حقل القصب .. وخيل إلىّ أن تجاعيد وجهه قد ازدادت عمقا .. ولم يكن يبدو عليه أنه مبهور بزيارة العاصمة ، ولا بدخول هذا المبنى الفخم .. إنه يسير بخطواته البطيئة الثابتة ، وبين شفتيه هذا التعبير الذى ينطق بالقرف والازدراء ..

وقام مانويل يستقبله بترحيب حار .

ولكن إيسوس لم يبد عليه أى فرحة بلقاء مانويل .. استقبل ترحيبه فى برود .. وصافحه بيد لا تهتز .. وخيل إلىّ أن شفتيه قد ازدادتا قرفاً ، ثم تجاهلنى .. لم يصافحنى .. ولم يلتفت إلىّ ، كأنى لا أستحق منه لفتة .

وجلس على المقعد الذى قدمه له مانويل دون أن يتكلم .. وبدأ مانويل يطلق حماسه فى وجه إيسوس .. القصب .. ستة ملايين طن .. العملة الصعبة .. ولكن إيسوس لم يبد عليه أى انفعال ، ولم ينطق بأى كلمة .. كأن مانويل يلقى بحماسه فى بئر لا قرار لها .

وعندما يئس مانويل من إثارة اهتمام إيسوس ، وجره إلى الحديث ، سكت برهة ، ثم قال له فى هدوء :

– أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك .

ورفع إيسوس عـينيه المجعـدتين وركزهما فى وجـه مانويل ، وقال فى هدوء كأنه أشد رجال العالم ثقة فى نفسه :

– لقد جئت لأساعدك ..

وبهت مانويل ، وقال :

– تساعدنى .. تساعدنى فى ماذا ؟

وقال إيسوس بنفس الهدوء :

– أساعدك فى عملك ..

ونظر إلىّ مـانويل كـأنه يشهـدنى على هذا المجنون ، ثم عـاد يقول لإيسوس :

– أتدرى ما هو عملى ؟

وقال إيسوس بلا مبالاة :

– لا ..

وقال مانويل وهو يشد حبال الصبر :

– إنى أعمل أستاذاً فى الجامعة ..

وقال إيسوس دون أن يهتز له رمش :

– لا مانع .. سأعمل معك أستاذاً فى الجامعة !

واتسعت عينا مانويل من الدهشـة .. ومددت عنقى وقد ركزت كل انتباهى إلى إيسوس لأعرف حكايته ..

وقال مانويل بعد أن هدأت الدهشة فى عينيه :

– ولكنك لا تعلم شيئا عن العمل فى الجامعة ..

وقال إيسوس فى برود :

– أنت أيضا لم تكن تعلم شيئـاً عن جمع القصب ، عندما جئت إلى الحقل ..

وقال مانويل :

– ولكنك لن تستطيع أن تفيد الطلبة فى شىء ..

وقال إيسوس فى اتزان :

– ثق أن الأضرار التى سأسببـها للطلبة أقل من الأضرار التى سببتها لعيدان القصب ..

وخبط مانويل على مكتبه بقبضة يده .. وصاح :

– ولكن التدريس فى الجـامعة يحتاج إلـى إعداد خاص ، وإلى دراسة ، وإلى مران ، وإلى شهادات .

وقال إيسوس :

– والقـصب أيضاً .. إنه يحـتاج إلى إعـداد خاص ، ودراسـة ، ومـران ، وشهـادة بأنك فـلاح .. إنى أقطع القـصب منذ كنت فى السادسة من عمرى ، وأنت ..

ولوى إيسوس شفتيه وقال :

– إنك عندما كنت تضرب عود القصب من وسطه .. كنت أحس كأنك تقـسم وسطى أنا .. ثم لماذا جئت تقطع القـصب ؟! وطنية !! إن التدريس فى الجامعة وطنية أيضاً ، وأنا وطنى ..

ثم سكت قليلا وعاد يقول :

– زمـان .. كان أسـاتذة الجـامعـة يدرسـون فى الجـامعـة ، والفلاحون يقطعون القصب .. فإذا أصبح من حق أساتذة الجامعة اليوم أن يقطعوا القصب ، فقد أصبح من حق الفلاحين أن يدرسوا فى الجامعة ..

وكان إيسوس بهذا الكلام يثير مشكلة كبيرة نوقشت فى جميع الدول الاشتـراكيـة .. مشكلة التخـصص .. وكان يثـيرها دون أن يدرى أنه يثير مشكلة ..

وهدأ مانويل ، وانطلقت عيناه بشعاع ذكى ، ثم قال :

– اتفقنا .. ستعمل معى أستاذاً مساعداً فى الجامعة ..

ثم سحب كتاباً ضخماً فى الاقتصاد ، ومد به يده إلى إيسوس قائلاً :

– خذ هذا الكتاب .. ولخص منه محاضرة عن التخطيط تلقيها غدا على الطلبة ..

وتناول إيسوس الكتاب وقلبه بين يديه فى تأفف ، وقال :

– ولكنى لا أستطيع أن أقرأ ..

وابتسم مانويل ، وقال بلا مبالاة :

– بسيطة .. نبدأ بتعليم الكتابة والقراءة ..

ثم قام من وراء مكتبه ، وجلس على مقعد بجانب إيسوس وسحب ورقة بيضاء وقلماً .. وقال وهو يكتب ألف باء :

– هذه ألف .. وهذه باء .. وهذه تاء ..

ووجدت إيسوس يحنى رأسه على الورقة ، والاهتمام الكبير يشد تجاعيد وجهه ، حتى بدا كأنه استعاد شبابه ..

•••

بعد أسبوع آخر ، مررت على مانويل فى مكتبه ، ووجدت إيسوس هناك جالساً على مائدة صغيرة فى ركن من الغرفة .. وكان يكتب ..

وهمس مانويل فى أذنى :

– لقد انتهى من تعلم ألف باء .. إنه فى منتهى الذكاء .. هل سمعت عن حملة محو الأمية التى قمنا بها ..

وكنت أعلم أن كاسترو وقف يوماً فى هيئة الأمم عندما زارها عام ٦١ وقال إنه سيمحو الأمية من كوبا فى خلال عام واحد .. وعاد إلى كوبا ، وأغلق جميع المدارس والجامعات ، وجند الطلبة والمدرسين فى جيش كبير سمى « جيش ألف باء » ثم أطلق هذا الجيش فى القرى والمصانع ، ليعيشوا تسعة شهور بين العمال

والفلاحين .. وكانت نسبة الأمية فى كوبا ٢٣,٦ فى المائة ، واستطاع هذا الجيش فى أقل من عام وبشهادة هيئة اليونسكو ، أن يخفض هذه النسبة إلى ٣,٩ فى المائة فقط .. وأصبحت كوبا من أرقى الأمم فى نسبة الأمية ..

وكان مانويل .. يريد أن يقول لى إنه يساهم الآن فى حملة محو الأمية كما ساهم فى حملة جمع القصب .. وكان يقولها مزهواً فخوراً بنفسه ..

ورفع إيسوس رأسه إلىّ .. وابتسم ابتسامة كبيرة .. لم يكن بين شفتيه تعبير القرف والاشمئزاز .. كان تعبيراً آخر .. تعبيراً أقرب إلى الفرحة بالحياة ، كأنه وجد شيئاً جديداً يعيش من أجله سنوات أكثر .. وقال لى من بعيد :

– كومستا ..

يعنى .. ازيك !!

تشيكوسلوفاكيا

الدموع السوداء ..

عرفت « هونكا » فى براج ، عاصمة تشيكوسلوفاكيا ..

كنت أقيم هناك فى فندق « الكرون » .. فندق فخم على الطراز الأوربى ، معظم نزلائه من السياح ورجال الأعمال أغلبهم من الانجليز والأمريكان ..

وكنت أعود إلى غرفتى عادة بعد منتصف الليل .. وفى أغلب الليالى كنت أجد « هونكا » جالسة فى بهو الفندق .. سيدة شابة .. ربما كانت فى الثلاثين .. شعرها أسود ، عيناها كبيرتان عميقتان ، وجهها نحيل ، لم يستطع الإجهاد الذى يبدو عليه أن يخفف من جاذبيته .. وكانت تبتسم لى وتظل تتبعنى بابتسامتها حتى أصل إلى باب المصعد ، فتدير رأسها عنى فى بطء وابتسامتها تذوب بين شفتيها ..

ولم أحاول أن أتقرب إلى هونكا ، أو أقدم لها نفسى .. اكتفيت بابتسامتها .. وكان فى ابتسامتها شىء يجعلنى أرتبك ، وأتردد ، وأكاد أتعثر فى مشيتى .. ورغم ذلك أحببت هذه الابتسامة ، وتعودتها .. وفى الليالى التى لم أكن أجد فيها هونكا جالسة فى مكانها من البهو ، كنت أنام قلقاً كأنى أنام جوعان بلا عشاء ..

ورآها صديق مصرى جاء يوصلنى فى إحدى الليالى إلى الفندق ، وهز كتفيه بلا مبالاة وقال فى استخفاف :

- إنها إحدى بنات التزوكس ..

و « التزوكس » هى العملة الثانية فى تشيكوسلوفاكيا .. وهى تصرف من البنك نظير استبدال العملة الصعبة .. فإذا كان معك دولارات أو جنيهات استرلينية وذهبت بها إلى البنك ردها إليك « تزوكس » .. سواء كنت من الأجانب أو المواطنين .. وقد وضعت الدولة هذا النظام لتقضى به على السوق السوداء .. والعملة الصعبة تصرف فى السوق السوداء بخمسة أضعاف سعرها الرسمى ، فأصدرت الحكومة عملة التزوكس لتأخذ لنفسها العملة الصعبة بدلا من تجارة السوق السوداء ، وجعلت قيمتها أكثر من السعر الرسمى مرة ونصف مرة .. وافتتحت محلات خاصة لا تتعامل إلا بالتزوكس .. فى هذه المحلات تستطيع أن تشترى كل ما يشترى بالعملة الصعبة .. السجائر الأمريكانى .. وأقلام باركر .. والسيارات .. و .. و ..

وصنف من النساء يظهر فى الفنادق الكبرى المخصصة للسياح والضيوف الأجانب ، لا يقبل أن يتعامل معك إلا بالعملة الصعبة ، أو « التزوكس » فأطلق عليهن اسم « بنات التزوكس » Tuzex girls .. أو بنات العملة الصعبة .. ولا شك أن كل هؤلاء البنات يعملن تحت رقابة الجهات المسئولة .. ينقلن الأخبار .. أخبار السياح والضيوف الأجانب .. وينقلن العملة الصعبة .. وهن لسن تافهات .. إن كلا منهن تجيد لغة أجنبية واحدة ، على الأقل .. ربما لغتين .. وربما ثلاثة .. وبعضهن من خريجات الجامعة .

واستطرد صديقى يحدثنى عن بنات العملة الصعبة ، وأكثر ما يقوله لا يصل إلى أذنى ، فقد كنت مستغرقاً فى ابتسامة

هونكا .. الابتسامة التى تستقبلنى عند باب الفندق ، وتحملنى حتى باب المصعد ..

●●●

وفى ليلة عدت متعباً بعد جهد عنيف بذلته طول النهار فى محاولة اكتشاف ما فى داخل رؤوس الناس .. وكنت فى حاجة إلى شراب ساخن أغسل به أعصابى .. أى شراب ساخن .. شاى . ينسون .. قرفة .. أى شىء ..

واتجهت إلى بهو الفندق ..

ولم يكن فى البهو أحد سوى « هونكا » .. جالسة فى مقعدها التقليدى .. وابتسامتها الهادئة المهذبة معلقة على وجهى ..

وتعمدت أن أجلس بحيث لا أواجهها .. وأنا أتساءل : هل أنا حقيقة متعب وفى حاجة إلى شراب ساخن ، أم إنى أريد فقط أن أبقى لحظات فى ظل ابتسامة هونكا؟!..

وتلفت حولى أبحث عن جرسون .. ولم أجد أحداً منهم .. فناديت الحارس الليلى للفندق ، وطلبت منه شراباً ساخناً .. فأجابنى فى أدب أن الوقت متأخر .. والمطبخ أغلق أبوابه .. والجرسونات انصرفوا ..

وكانت المناقشة بينى وبين الحارس الليلى تدور بصعوبة .. بالإشارة تقريباً ..

وفجأة سمعت صوت هونكا من خلف ظهرى ، تقول فى إنجليزية سليمة :

– عفواً .. إنى أعرف مكاناً يستطيع أن يقدم لك الآن شراباً ساخناً ..

والتفت إليها ..

وكدت أغرق فى عينيها الواسعتين ..

وبدأت فى صوت متزن حلو كأنها تتحكم فى كل نبرة من نبراته ، تصف لى عنوان المحل الذى يقدم شراباً ساخناً .

قلت وأنا أحاول أن أتعلق بابتسامتها حتى لا أغرق فى عينيها :

– لا أظن أنى أستطيع أن أصل إليه وحدى .. هل نذهب معاً ؟

واتسعت ابتسامتها قليلاً ، وجذبت حقيبتها ، وقامت واقفة دون أن تجيبنى .. كأن دعوتى لم تكن فى حاجة إلى جواب ..

ووقفت بجانبها ..

إنها أطول منى قليلاً ..

لا يهم ..

وخرجنا إلى الشارع نسير صامتين فى خطوات هادئة كأننا نرقص على نغمات كعوب حذاءينا وهى تدق على بلاط البازلت الذى يكسو الشارع ..

وقلت بعد فترة فى صوت خفيض :

– اسمى حسن .. من مصر ..

وأنا فى الخارج – وفى غير المناسبات الرسمية – أقول إن اسمى « حسن » حتى أوفر على محدثى صعوبة نطق اسمى ، وهو أصعب نطقاً من « حسن » ..

وقالت تقدم لى نفسها :

– موجوتشك أوفا ..

وضحكت وهى ترى الغباء فى عينى ، وشفتاى تتعثران وأنا أحاول أن أردد الاسم الذى ذكرته لى ..

ثم قالت :

– تستطيع أن تدعونى هونكا ..

ولم يكن من السـهل علىّ أيضـاً أن أردد اسم هونكا ، فـإنهم ينطقون الهاء مـدموجة فى ألف مضمومة ، بحـيث يصبح لها رنة غـريبـة عـلى لغـتنا .. ورددت الاسم وراءها عـدة مـرات حـتى استطعت أن أنطقه صحيحاً ..

وقلت :

– إنه اسم له رنـة غـريبـة .. كـأنه اسم إحـدى بنـات الهنود الحمر..

وعادت تضحك وقالت :

– إن فى عروقى دماء مـختلطة كثيـرة .. من يدرى .. ربما كان بينها دم أحد الهنود الحمر ..

وخرجنا إلى شارع فاسلافسكى .. وقلت :

– هل سنسير طويلا .. إننا نسـتطيع أن ننادى إحدى سيارات الأجرة ..

قالت وهى تشير بإصبعها إلى البناء المواجه :

– لا .. سآخذك إلى هذا الفندق ..

ونزلت بى إلى بدروم الفندق ..

إنه ملهى ليلـى ، تعزف فـيـه فـرقـة موسـيـقـية ، رقـصـات التـشاتشـا ، والتويست ، والشـيك .. وعندمـا تسمع ألحـان هذه الرقصـات فى أى بلد من بلاد أوربا الغربيـة ، لا تشعـر بغرابة ، ولا تحس بأذنيك تنتصبان كأنهما فوجئتا بصوت شاذ .. ولكن .. عندمـا تسـمع نفس الألحـان فى براج ، أو فى أى دولة من دول أوربا الشرقـية ، لا تستطيع أن تتـمالك نفسك من التـساؤل .. ثم تخـرج من تساؤلك بحـقيـقة واحـدة ، وهى أن الفن الموسيـقى .. أقوى من الحدود ، وأقوى من المذاهب السياسية والاجتماعية .. إن

الحـان أمريكا تعـزف فى روسـيا .. وألحـان روسـيا تعـزف فى أمـريكا .. وفى أشد أيام الحـرب الماضـية ضـراوة كانت الأغنيـة الشعـبيـة بين جنود الحلفاء هى نفس الأغنـية التى يغنيـها جنود النازى .. أغـنيـة « ليلى مـارلين » .. حـتى الـويلات .. ويلات الحرب .. لم تـستطع أن تصد فـن شعب عن الوصول إلـى شعب آخر ..

وجلسـنا ـ هونكا وأنا ـ نـتناول الشـاى فى ركن من الملـهى الليلى.. وهى تحدثنى عن وطنها تشيكوسلوفاكيا وربما كان معظم حديـثهـا منقولاً عن نشـرات السيـاحة والدعـاية .. ولكنها كـانت تتحدث كأنها تطلعك على أسرار كـبيرة .. وصوتها الحلو المتزن ، يضع فى كلماتها وضـوحاً ، كأنها تتكلم بخط كبـير .. وخيل إلىّ فعلا أنى عرفت منهـا عن تشيكوسلوفاكيا أكثـر مما عرفته فى أى يوم آخر ، ومن أى إنسان آخر ..

وخرجنا من الملهى بعد قليل ، وعندما نسير على صوت كعوب أحذيتنا وهى ترن على بلاط الشارع ..

وأوصلتنى حـتى باب الفندق .. ونظـرت إلىّ لتلتـقى بـعـينى المترددتين المحرجتين .. وقالت :

– هل أستطيع أن أقدم لك خدمة أخرى ..

قلت :

– نعم .. اقبلى دعوتى على الغداء غداً ..

فابتسمت ابتسامتها الصغيرة المهذبة ، وقالت :

– غداً .. فى الواحدة .. هنا ..

ومدت يدها وصافحتنى .. وكانت يدها أقوى مما انتظرت ، فى قوة يد رجل .. واستطردت قائلة :

– مستر إحسان .. إنى سعيدة بمعرفتك ..

قلت وأنا أهز يدها :

– وأنا أيضا ..

وسحبت يدها من يدى ..

وابتعدت ..

واستدرت متجهاً نحو المصعد .. وفجأة تنبهت .. لقد ذكرت اسمى .. اسمى الحقيقى .. إحسان .. كيف عرفته .. من أين ؟

وأحاط بى الضباب حتى دخلت غرفتى .. ضباب الحيرة .. والجزع ، كأنه يكفى أن تعرف اسمى لتكتشف سرى ..

وتكاثف الضباب فى عينى ، فنمت .

●●●

وفى اليوم التالى لم أحاول أن أكتشف كيف عرفت هونكا اسمى ..

لا يهم ..

إنى لم أخفه إلا لأسهل عليه نطقه ..

وسلمت نفسى لها .. أخذتنى لتناول الطعام فى مطعم يقع فوق تل مرتفع يطل على مدينة براج كلها .. ثم زرنا بعد الغداء أحد المتاحف .. ثم طافت بى محال « التوزكس » لأشترى بعض الهدايا.. وفى المساء تناولنا العشاء سوياً فى مطعم يقع داخل قصر قديم ، احتفظت له الحكومة بكل مظاهر أبهته وفخامته ، ويقدم فيه الطعام للزبائن فى نفس الأطباق المذهبة التى كان يستعملها صاحب القصر .. ونفس الملاعق والشوك والسكاكين . ونفس الشمعدانات الفضية الرائعة ..

وبعد العشاء ، عدنا ..

ووقفنا أمام باب الفندق ، كما وقفنا ليلة أمس ، وقالت وعيناها مستريحتان فوق وجهى ، وابتسامتها أكثر حلاوة وأكثر اتزاناً :

– هل أستطيع أن أقدم لك أى خدمة أخرى ..

قلت وأنا أبتسم :

– نعم .. نتناول الغداء معا ، غداً ..

واتسعت عيناها من الدهشة ، ثم هزت كتفيها ، وقالت :

– إنك تعطينى صورة جديدة عن رجال الشرق ..

ثم مدت يدها القوية وصافحتنى قائلة :

– غداً .. فى الواحدة .. هنا ..

وابتعدت ..

●●●

وتوطدت الصداقة بينى وبين هونكا .. أصبحنا نلتقى كل يوم.. وطول اليوم .. وتأخذنى معها ، وآخذها معى ، إلى حيث تريد وإلى حيث أريد .. وكانت صداقة حقيقية .. نظيفة .. ارتفعت فوق مستوى « بنات التوزكس » .. كانت ترجمانة لى .. وسكرتيرة .. ولكنها لم تكن أبداً إحدى بنات التوزكس .. حتى الهدايا التى قدمتها لها ، لم تكن أكثر من الهدايا التى يمكن أن تقبلها أى فتاة من خلال صداقة بريئة ..

وقلت لها ، وقد زال الحرج بيننا ، ونحن جالسان فوق إحدى الربى الخضراء التى تطل على مدينة براج :

– ألا تلاحظين أننا تكلمنا فى كل موضوع إلا موضوعاً واحداً ..

قالت وهى تجمع فى قبضتها بعض الحشائش وتنزعها من جذورها :

– أى موضوع ؟

قلت :

– أنت ..

قالت بلا مبالاة :

– ماذا تريد أن تعرف عنى ؟

قلت :

– قدر ما عرفته عنى .. لقد حدثتك عن زوجتى ، وأولادى .. وحبى الأول .. وكل شىء ..

قالت مبتسمة :

– هل تريد أن تتعرف إلى عائلتى .. إنها فى بلد آخر .. فى بلسن ..

قلت :

– إنى أريد أن أتعرف إليك .. إلى قلبك .. لا شك أنك أحببت ..

ورفعت وجهها فى لفتة سريعة كأنها بوغتت ، ثم عادت وأحنت رأسها ، وجمعت بعض عيدان الحشائش فى قبضتها ونزعتها من الأرض فى عنف ، وتمتمت :

– نعم .. أحببت ..

وسكتت..

قلت وأنا أعتدل فى جلستى لأسمع قصة :

– وكيف انتهى الحب ..

قالت وهى تتنهد :

– مات ..

قلت وأنا أواسيها :

– فى حادث ؟

قالت فى بساطة :

– لا .. أعدم ..

قلت فى دهشة :

– لماذا ؟

قالت وهى لا تزال تدعى عدم المبالاة :

– جاسوس ..

وسكتت ..

وسكت معها .. خيل إلىّ أنه ليس من حقى أن أطلب منها المزيد .. ولكن هونكا ما لبثت أن عادت تتكلم فى صوت خفيض ، كأنها تغنى لنفسها أغنية حزينة :

– كنت أيامها طالبة فى الجامعة .. أدرس اللغات .. كنت أكثر بنات الجامعة مساهمة فى النشاط الجامعى .. النشاط السياسى ، والنشاط الرياضى .. وانتخبونى نائبة رئيس اتحاد الطلبة .. كنت فرحة .. مرحة .. أفيض بالحيوية ، كان يومى أقصر من أن يتسع لنشاطى .. وكنت أحب ألبريتش .. كان شاباً رائعاً .. ربما كان صموتاً .. ولكنه كان يفيض حناناً ورقة ، رغم مظاهر القوة التى يحملها فى ذراعيه ، ورغم عينيه الجادتين العابستين .. وكان عاملاً فنياً فى أحد المصانع .. تخصص فى صناعة أجزاء من الطائرة .. إننا لا نصنع هنا الطائرات ، ولكننا نصنع أجزاء منها ، نرسلها إلى روسيا حيث مصانع تجميع أجزاء الطائرة .. وكان ألبريتش يقيم فى غرفة وحده ، وكنت أقضى معه معظم ليالى الأسبوع .. أنتهى من يومى الجامعى ، وأحمل كتبى وأذهب إليه .. وربما لاحظت تردد بعض الأصدقاء عليه فى الليل .. وربما كان كريماً معى أكثر من عادة الشبان التشيك .. ولكن لا شىء منه أثار

ريبتى .. كنت أحب كل شىء فيه . أحب صمته .. وأحب قوة ذراعيه .. وأحب عينيه العابستين ومظهره الجاد .. وأحب رقته وحنانه وكرمه ..

وسكتت هونكا فترة وشفتاها منفرجتان كأنها تحاول أن تلتقط بهما شيئاً طار فى الهواء .. ثم عادت تقول :

– وفوجئت ذات صباح بمدير الكلية يستدعينى إلى مكتبه ، ثم يتركنى مع رجلين لا أعرفهما ، ولكنى خفتهما منذ أن وقع بصرى عليهما ..

وقال أحد الرجلين ، قبل أن يتبادل التحية معى :

– « هل تعرفين ألبريتش موجتشك ؟.. ما علاقتك به » .

قلت وأنا أرتعد :

– « إنه حبيبى » .

قال كأنه يقذف فى وجهى بقنبلة :

– « هل تعرفين أنه جاسوس » ؟

وصرخت :

– « جاسوس .. لا .. لا يمكن .. ليس ألبريتش .. إنك تكذب .. لعلك أخطأت .. و .. » .

وتركنى الرجل أصرخ ، وهو يسكب على صراخى نظرته الجامدة ، حتى أخمدنى .. وبدأ يسرد لى تفاصيل تحركات ألبريتش التى تثبت أنه يعمل لحساب جهة أجنبية .. وبدأ يحدثنى عن مستقبل القوى العاملة فى بلدى .. وأقنعنى أن سلامة وطنى كلها قد أصبحت فى يدى .. وكل ما يريده منى هو أن أقنع ألبريتش أن ينتقل للسكن فى شقة أخرى مكونة من حجرتين أعدت له خصيصاً ، وجهزت بأجهزة التسجيل والمراقبة ..

ولم يخف عنى شيئاً .. شرح لى الخطة الكاملة التى وضعت لحصر كل نشاط ألبريتش ومعرفة الأشخاص الذين يتعاونون معه .. ثم قال لى فى لهجة أقرب إلى التهديد : إنى أصبحت مخيرة بين أن أعمل لبلدى ، أو أعمل لحبيبى .

وابتسمت هونكا ابتسامة مسكينة واستطردت قائلة :

– لم يكن الرجل فى حاجة إلى هذا التهديد .. فقد كانت أذناى تطنان أثناء حديثه بأصوات أشبه بدقات طبول الحرب .. خيل إلىّ أننا أصبحنا فى حرب .. وأنى أصبحت قائد لجيش الشعب .. وعلىّ أن أقوده إلى النصر.. النصر على حبيبى .. لا ، لم يعد البريتش فى تلك الأيام حبيبى .. لقد انقلب فى خيالى إلى عدو .. إنسان مخيف .. بشع .. يجب أن أحاربه .. وأقتله .. وعندما ذهبت إلى لقائه لم يستطع أن ينزع هذه الصورة من خيالى .. عيناه رأيتهما كعينى شيطان .. ذراعاه كأرجل الخرتيت .. رقته كملمس الثعبان .. وعندما جاء يقبلنى تشنجت شفتاى .. وعندما لف ذراعيه حولى تقلصت كل قطعة من جسدى .. ولكنى تحاملت .. وافتعلت الحب لأقوده به إلى حتفه .. وكانت هذه هى المرة الأولى التى أفتعل فيها الحب .. وقد أجدت افتعاله ..

وتنهدت هونكا كأنها تطلق من صدرها ناراً مخبأة ، ثم عادت تقول :

– كان من السهل علىّ أن أقنع ألبريتش بأن ينتقل إلى الشقة التى أعدت له .. فقد كان يثق بى .. كان يشك فى كل الناس إلا فىّ .. ثم لم ينقض ثلاثة أسابيع من وضعه تحت أجهزة التسجيل والمراقبة حتى قبض عليه .. قبض عليه وأنا معه .. وما كاد رجال المخابرات يسحبونه إلى خارج البيت ، حتى سكتت دقات طبول

الحرب عن أذنى .. سكت الطنين .. وأحسست كأن غشاوة انزاحت عن عينى .. وعدت أرى الحب .. حبى .. إن ألبريتش حبيبى .. حبيبى قبضوا عليه .. وجريت على السلم وأنا أصرخ .. ألبريتش .. ألبريتش .. انتظر .. وتعلقت به وأنا أصيح .. سامحنى .. سامحنى .. إنى أحبك .. أحبك .. وابتسم ألبريتش ابتسامة صغيرة .. ولم يتكلم .. ودفعوه إلى داخل السيارة الكبيرة..

وسكتت هونكا ..

وأحنت رأسها ..

ولمحت دموعاً تسيل على خدها .. وكانت الدموع تسحب الكحل من عينيها وتتلون بلونه .. كانت دموعاً سوداء .

ولم أستطع أن أقول لها شيئاً ، بقيت صامتاً معها ..

وعادت هونكا تقبض على أعناق عيدان الحشيش وتنزعها من الأرض ، ثم تمتمت قائلة وهى تخفى وجهها :

– لقد كدت أجن بعد هذا اليوم .. جننت فعلا .. أصبحت أقضى يومى وليلى أجرى فى الشوارع كأنى أهرب من شىء .. أهرب من نفسى .. ثم سمحوا لى بأن أزوره فى سجنه قبل أن ينفذوا فيه حكم الإعدام .. وكان قد علم أثناء محاكمته بأنى قد اشتركت فى تدبير الفخ الذى وقع فيه .. ورغم ذلك فقد استقبلنى من خلف القضبان هادئاً ، رائعاً ، يفيض بالرقة والحنان .. وصممت على أن أروى له القصة كلها .. أن أعترف له .. خيل إلىّ أن الاعتراف سيريحنى ، كأنى أعترف أمام قسيس الكنيسة .. واستمع إلىّ ألبريتش فى هدوء ، ثم مد كفه القوية من بين القضبان ومسح على شعرى وقال :

– « لقد أديت واجبك .. وإنى واثق أننا لو عدنا من أول القصة لاتخذت منى نفس الموقف » .

قلت له وأنا أقبل يده :

– « هل صفحت عنى ؟»

قال مبتسماً ابتسامته الضنينة :

– « لم تكن مشكلة أن أصفح عنك .. كانت المشكلة أن أصفح عن نفسى » .

قلت وأنا أتشبث بيده :

– « إذن ، افعل لى شيئاً » .

قال :

– « وهل أستطيع الآن أن أفعل لك شيئاً .. » .

قلت :

– « تزوجنى !!!» .

قال وهو يكاد يضحك :

– « لا تكونى مجنونة » .

وصرخت :

– تزوجنى .. تزوجنى .. أرجوك .. أتوسل إليك .. تزوجنى .. لن أستطيع أن أعيش إلا إذا تزوجتنى » .

كنت أريد أن أتزوجه ولو على الورق .. كنت أريده أن يترك لى اسمه قبل أن يعدم .. وبقيت أصرخ .. وأصرخ .. وهو يبتسم ابتسامة صغيرة كأنه يشفق علىّ ..

وتدخل الحارس الذى كان يقف معنا .. وجاء مدير السجن على صراخى .. وأبلغنا رغبتى فى الزواج إلى الجهات المسئولة .. ولكنهم رفضوا .. رفضوا أن يزوجونى لحبيبى .. قالوا إنه ليس

من حق الخائن أن يتزوج .. ووعدونى بوسام .. ولكنى رفضت الوسام .. أريد أن أتزوج حبيبى .. أريد أن أغلق اسمه على صدرى .. وأصروا على الرفض .. وأعدم ألبريتش فى اليوم التالى ..

ومسحت هونكا الدموع السوداء عن خديها ، ثم عادت تقول :

– لقد جعلوا من ألبريتش عدواً للشعب .. كان كل الناس يتطلعون إلى صورته فى الصحف ويبصقون عليها .. ولكنى درت بين الناس أقول لهم إنى زوجته .. وأطلقت على نفسى اسم « موجوتشك أوفا » .. أى ، مدام موجوتشك .. اسم عائلة حبيبى .. ألبريتش موجوتشك .. وأصبح الناس يبصقون فى وجهى أيضاً .. وأستريح لبصقاتهم كأنى أغسل بها قلبى .. ثم نقلونى إلى المستشفى ..

وابتسمت هونكا ابتسامة مسكينة ، وهى تتنهد ، ثم استطردت قائلة :

– بقيت فى المستشفى أكثر من ستة شهور .. ثم خرجت .. أحسن حالا .. واشتغلت .. ولكنى ما زلت أحمل اسمه .. موجوتشك أوفا ..

قلت :

– ماذا اشتغلت ؟

ونظرت إلىّ فى تردد ، ثم قامت واقفة ، وقالت :

– لقد أعطيتك يوماً حزيناً .. دعنا نعود ..

ولم تجب عن سؤالى ..

وعدنا إلى المدينة ، ونحن صامتان .. وافترقنا عند باب الفندق ، على أن نلتقى فى المساء ..

ولكنها لم تأت ..

انتظرتها طول الليل ، جالساً على مقعد واحد فى بهو الفندق ، أرقب الباب ..

ولكنها لم تأت ..

وفى اليوم التالى انتظرتها أيضاً .. طول اليوم ..

ولم تأت ..

وفى المساء سلمنى موظف الفندق رسالة منها .. سطرين .. « آسفة .. قد نلتقى مرة ثانية .. من يدرى .. إنى لا أيأس أبداً .. وشكراً .. لقد منحتنى صداقة ممتعة » .

وقال صديقى المصرى وهو يقرأ معى رسالتها :

– ربما كلفت بمهمة أخرى ..

ثم ضحك ضحكة كبيرة صارخة وقحة .. وهممت أن أصرخ فيه مدافعاً عن هونكا .. ولكنى تذكرت أنه لم ير معى دموعها .. الدموع المشبعة بكحل عينيها .. الدموع السوداء ..

ألمانيا

سلك من ذهب
وسلك من نحاس

برلين الغربية .. وكنت جالساً فى مقهى فندق كمبنسكى ، على رصيف الشارع الكبير الذى يشق قلب المدينة .. والشمس دافئة، كشمس الشتاء عندنا .. وأعصابى هادئة مرخية كأنها راقدة على حرير .. وعيناى معلقتان على وجوه الناس .. إن أجمل مخلوقات الله هو الإنسان .. أجمل من الزهور .. وأجمل من قطع السحاب المنثورة فى السماء .. وأجمل من القمر ، والنجوم والبحر والنهر .. إنى أحب الإنسان .. وعلى شفتى ابتسامة سعيدة تفتح قلبى لكل الناس ..

ومر من أمامى شاب أسمر متوسط الطول ، توقفت عيناه على وجهى برهة ثم تابع سيره .. ولكنه ما لبث أن عاد .. مر من أمامى مرة ثانية وتوقفت عيناه على وجهى برهة أطول .. ثم ابتعد .. وعاد مرة ثالثة .. وفى هذه المرة وقف أمامى وقال فى تردد وباللغة العربية :

– حضرتك فلان ..

وأجبت بالإيجاب ..

وقفزت الفرحة على وجهه .. فرحة خالصة حقيقية ليس فيها هذا الخيط الباهت الذى ترسمه المجاملات ، والذى يبدو كشرخ فى طبق صينى .. التقط يدى وأخذ يهزها فى حرارة ، وهو يصيح ..

– مش معقول .. مستحيل ، أنت هنا ، ولا أدرى .. و ..

وانتقلت فرحته إلىّ وأحسست به فى لحظة واحدة كصديق قديم ، ودعوته إلى الجلوس على مائدتى ، وأنا أتعرف على عينيه الذكيتين النشيطتين وجبينه العالى ، وشعراته الخفيفة التى تطير على رأسه وتكاد تقع من فوقه ، وأناقته المرسومة المبالغ فيها .. وهو يتكلم .. لا يريد أن يكف عن الكلام .. ثم قال :

– إنك لا تدرى كم ستفرح زوجتى عندما تراك .. إنها .. و ..

وقاطعته :

– ألمانية ؟..

وقال وفرحته على وجنتيه :

– طبعاً لا .. مصرية .. من أين ستعرفك لو كانت ألمانية .. اسمع .. ستتناول الغداء معنا .. عندى فى البيت .. سأتصل بها الآن فى التليفون لتعد لك طعاماً مصرياً .. لابد أن الملوخية والبامية أوحشتاك ..

قلت وأنا أحس به يقترب من قلبى أكثر ..

– اسمع أنت .. لا الملوخية ولا البامية أوحشتنى .. ثم إنى قررت أن أبقى فى هذا المقهى إلى أن تغيب الشمس .. وكنت قد قررت أن أبقى فيه وحدى ..

قال وحماسه لا يفتر :

– إذن نلقاك بعد أن تغيب الشمس .. إنك تقيم فى كمبنسكى .. أليس كذلك .. سأمر عليك فى السابعة .. أرجوك ، وافق ..

وقد تعودت عندما أكون فى أوربا ، أن تمر علىّ أيام أتمنى فيها ألا أرى أحداً من مواطنى .. فإن لقائى بأى مصرى ينزعنى من أوربا كلها ، ويعيدنى إلى مصر .. إلى الشخصية المصرية ، والنكتة المصرية ، والمشاكل المصرية .. والملوخية والبامية .. إنى

أتعمد فى مثل هذه الأيام أن أشعر بأنى ضائع .. تائه .. تائه عن شخصيتى .. تائه فى بلد لا أعرفه ، وبين ناس لا أعرفهم .. تائه وأنا أتكلم لغة ليست لغتى .. وآكل طعاماً لم أتعوده .. وتائه وأنا أتخبط فى عادات وتقاليد ليست منى .. ورغم ذلك وافقت .. وافقت على أن ألتقى فى المساء بأحد مواطنى ، وزوجته أيضاً ، وربما أكلت معهما الملوخية والبامية .. فقد كان ـ كما قلت ـ قد اقترب من قلبى ، وأحسست به صديقاً عزيزاً ..

وقال :

– سأتركك الآن فى خلوتك .. هل تفكر فى قصة جديدة ؟..

قلت :

– لا .. إنى أستريح من قصة قديمة !!

قال وهو يهم بالقيام من على مقعده :

– بالحق .. نسيت أن أقدم لك نفسى .. أنا طلعت مجدى .. أعمل فى التصدير والاستيراد .. مكتبى الرئيس فى هامبورج .. ولى مكتب آخر هنا فى برلين ..

قلت وأنا ابتسم له فرحاً به :

– تشرفنا ..

وعاد يهز يدى فى حرارة ..

وابتعد .. وأنا أنظر خلفه بإعجاب .. إعجابى بكل مصرى يعمل فى الخارج .. وينجح ..

• • •

وفى المساء جاء طلعت ومعه زوجته .. وقدمها إلىّ :

– درية .. زوجتى ..

سيدة شابة قد لا يزيد عمرها على الخامسة والعشرين .. لا يبهرك جمالها .. ولكن تبهرك أناقتها ، ورشاقتها .. أناقة هادئة ،

ورشاقة محتشمة ليس فيها تصنع ولا افتعال .. ونظرت إلىّ ورموشها تهتز فوق عينيها ، هذه النظرة التى تحرجنى كثيراً لأنها تضعنى فى مكان الأب ، وتشعرنى بمسئوليتى نحو كل من قرأ لى .. وصافحتنى قائلة :

– إنى سعيدة بلقائك .. لقد قرأت كل ما كتبت ..

وازداد حرجى ..

وخرجنا إلى سيارتهم المنتظرة عند الباب .. سيارة مرسيدس كبيرة « ٢٢٠ » آخر طراز .. وقال لى طلعت وهو يفتح لى باب المقعد الخلفى :

– سنذهب أولا إلى البيت .. نتناول العشاء .. ثم نبحث عن سهرة فى الخارج ..

قلت :

– إنى مستسلم لك ..

والتفتت درية إلىّ ، بعد أن جلست بجانب زوجها فى المقعد الأمامى ، وبدأت تحدثنى عن قصصى .. وأنا أشعر بالضيق كلما حدثنى أحد عن عملى .. أشعر كأن رباط عنقى يضيق حول زورى .. ولكن حديث درية لم يكن مجرد إطراء ، ولا مجرد اعتراض .. كان حديثاً واعياً جاداً ، أشبه بالدراسة ، ووجدت نفسى أناقشها مناقشة أكبر من سنها ، كأنى أناقش الدكتور لويس عوض ، وربما استفدت من مناقشتها أكثر ..

إلى أن قطع حديثنا وصولنا إلى البيت ..

بيت فى عمارة كبيرة بحى أنيق من أحياء برلين .. وتبهرك بمجرد دخولك إليه فخامة وهدوء الطراز الألمانى .. كأن كل قطعة أثاث أسد مستأنس رابض أمامك .. والهدوء .. هدوء كثيف ، لا تكاد تسمع فيه وقع أقدامك ويكاد صوتك يضيع فى صمته ..

وقطع الأثاث الألمانى ، تعبر دائماً عن القوة .. قوة الجمال .. قوة الخطوط التى رسمت بها .. وقوة قطع الخشب الذى صنعت منه .. ولكن هذه القوة اكتسبت فى بيت درية رقة شرقية .. أضافت هنا صورة مصرية .. وهنا مفرشاً شغلته بيديها .. كأنها تربت على ظهر الأسد الألمانى ليصبح قطاً أليفاً مدللاً مريحاً ..

وأخذتنى إلى المكتبة .. أكثر من نصفها كتب عربية ، مجلدة تجليداً أنيقاً رائعاً ، لا يحلم به مؤلفوها .. وبينها الكتب التى تضم قصصى .. ونظرت إلى كتبى نظرة سريعة خجولة كأنى أنظر إلى بناتى وهن بقمصان النوم فى بيوت أزواجهن .

وقالت درية كأنها تريد أن تشعرنى بأهميتى عندها :

– عندى مجموعة أخرى فى هامبورج ..

وتمتمت ببضع كلمات تعثر بينها لسانى .. ثم جلسنا فى مقاعد عريضة وثيرة ، وعدنا نتحدث فى الأدب .. وأعترف أن معلومات درية عن إنتاجنا الأدبى كانت أكثر بكثير من معلوماتى .. لقد قرأت أكثر مما قرأت .. وربما فاتنى بعض حديثها وأنا أدير عينى فى بيتها الفخم ، وأنا أتساءل : كيف استطاع طلعت أن يؤثث مثل هذا البيت .. وفى أوربا .. ولعل بيته فى هامبورج أفخم وأكبر ..

وعندما قمنا إلى مائدة العشاء .. قالت درية وابتسامتها المهذبة تملأ شفتيها :

– لم أصنع لك أكلاً مصرياً كما نصحنى طلعت .. إننا نحب الأكل المصرى لأنه يذكرنا بمصر .. أما أنت .. فلعلك تفضل ما ينسيك مصر .. فأنت قادم منها ..

قلت :

– منذ متى لم تذهبا إلى مصر ؟

قالت وفى عينيها لهفة :

– آخر مرة منذ عامين .. لم نبق هناك سوى أسبوعين .. وعدنا ..

وقال طلعت :

– عملى لا يسمح لى بالبقاء فى بلدى .. ولكن يوماً ما سأعود وسأبقى إلى آخر حياتى ..

قلت :

– لا شك أنك ناجح .. بيتك يدل على نجاحك .. ولكن خبرنى .. كيف بدأت .. وكيف نجحت بهذه السرعة .. يخيل إلىّ أن عمرك لا يزيد على الثلاثين ..

ورفع رأسه وقال كأنه يتباهى بعمره :

– اثنين وثلاثين ..

قلت كأنى أحاول أن أشده من لسانه :

– كيف صنعت كل ذلك وأنت فى الثانية والثلاثين ..

قال وهو يضحك ضحكة عالية :

– تريد أن تسمع قصة ؟!

قلت كأنى أتحمل دلاله علىّ :

– نعم .. أريد أن أسمع قصة .

والتفت إلى زوجته درية كأنه يستأذنها ، وخيل إلىّ لحظتها أنها أقوى منه .. أقوى منه فى شخصيتها ، وفى صفاء نفسها ..

وابتسمت درية كأنها سمحت له بالحديث ..

وبدأ طلعت مجدى يروى قصته :

– « بدأت موظفاً فى وزارة الخارجية .. بعد أن نلت دبلوم كلية التجارة قسم المحاسبة .. وعينت فى سفارة مصر بـ « ..... » وأذكر أن أول شىء فعلته هو أن طبعت بطاقة بالفرنسية تحمل اسمى وتحتها كلمة « سفارة الجمهورية العربية » .. وهو تعبير

قد يعنى أنك سفير فى سفارة الجمهورية العربية ، أو وزير ، أو مستشار ، وقد يعنى أيضاً أنك ساع ، أو فراش فى سفارة الجمهورية العربية .. وأنا لم أعين طبعاً سفيراً ولا مستشاراً ، ولم أعين أيضاً فراشاً .. ولكنى عينت أميناً للمحفوظات ..

والتفت إلى طلعت واستطرد قائلا وقد برقت عيناه ، وبدأ صوته يحتد :

– « هل تعرف ما هو وضع أمين المحفوظات فى أى سفارة .. أنا نفسى لم أكن أدرى .. لقد فرحت بالوظيفة عندما عينت فيها .. كل ما عرفته عنها أنى سأقيم فى الخارج ، وسأكون عضواً فى السفارة ، وسأتقاضى بدل اغتراب .. كنت أكاد أطير من الفرح .. وسافرت ، ودخلت السفارة منفوشاً كالديك .. مغروراً بطموحى .. ولكن .. بسرعة ، وفى خلال أيام ، ربما ساعات .. تعاون كل أعضاء السفارة الأجلاء لينتفوا ريش الديك ، ويحطموا غرور الشاب الطموح .. ويضعونى فى مكانى .. مكان أمين المحفوظات ..

وتحشرج صوت طلعت كأنه يهم بالبكاء ، واستطرد قائلا :

– إن مكان أمين المحفوظات قريب جدا من باب الخدم .. وهو لا يستطيع أن يكون خادماً .. الخدم يرفضون أن يكون منهم .. ولا يستطيع أيضاً أن يكون من بين رجال السفارة .. لأن رجال السفارة ينتمون إلى السلك الدبلوماسى ، أما هو فينتمى إلى السلك الإدارى .. والفرق بينهما كبير .. كبير .. إنه الفرق بين أمراء الهندوس وطائفة المنبوذين .. الفرق بين الشراكسة فى عهد المماليك والفلاحين .. وكل شىء لهم .. كل الامتيازات .. السيارات والسجائر والخمور المعفاة من الضرائب .. والحفلات والاستقبالات .. والتحيات والتعظيمات .. وربما تهون كل هذه الامتيازات .. ولكن الذى لا يهون هو المعاملة ، إن رجال السلك

الدبلوماسى يعيشون فى عالم بعيد عن رجال السلك الإدارى .. منى .. فلم يكن من أعضاء السلك الإدارى فى السفارة غيرى .. كلهم ينظرون إلىّ من فوق .. من عل .. كأنهم فوق مئذنة وأنا فى الواطى .. لم يحاول أحد منهم أن يصادقنى ، أو يفتح لى قلبه .. لم يحاول أحد منهم أن يدعونى إلى بيته .. عيب .. لا يصح أن يبدو أحد رجال السلك الدبلوماسى وهو فى صحبة أمين المحفوظات .. آسف .. لقد دعتنى حرم السفير إلى الغداء مرة مع بقية الموظفين واستقبلتنى وهى تبتسم ابتسامة مرسومة كأنها تقول لى .. انظر إلىّ .. ألست سيدة كريمة متواضعة إلى حد أن ادعو أمين المحفوظات إلى بيتى .. وبجانبها زوجها السفير يبتسم فى وقار كأنه قرر أن يكون زعيم الفلاحين أمثالى ..

وقاطعته درية وفى عينيها نظرة عتاب يشوبها الغضب ، قائلة :

– طلعت .. لا تنفعل .. و ..

ولكنه قاطعها .. واستطرد فى حديثه كأنه لم يسمعها :

– « حتى السعاة كانوا يعترفون بهذا التمييز العنصرى .. يتحدثون عن رجال السفارة بألقابهم .. سيادة السفير .. سيادة المستشار .. سيادة السكرتير الأول .. وإذا تحدثوا عنهم بأسمائهم منحوهم لقب « البهوية » رغم إلغاء الألقاب .. شوكت بيه .. فهمى بيه .. خليل بيه .. أما أنا فلا أحد يقول سيادة أمين المحفوظات .. وإذا أرادوا احترامى منحونى لقب « أستاذ » .. من تحت أسنانهم .. حتى أصغر موظفى السلك الدبلوماسى الذى لا يزيد علىّ فى شهادته ، ولا فى مرتبه ، ولا فى عمره ، ولا فى أصله وفصله .. لا يزيد علىّ إلا فى أنه يشترى السجائر أرخص مما اشتريها .. معفاة من الضرائب .. حتى هذا ، وضع فى القالب

العنصرى منذ اليوم الأول لوصوله ، وبدأ يتحدث إلىّ وشفتاه مقلوبتان ..

وابتلع طلعت ريقه وتنهد كأنه يلتقط أنفاسه بعد أن جرى مشواراً طويلاً ، وعاد يقول وهو ينظر أمامه ، كأنه يثقب بعينيه الحائط .. لا يريد أن ينظر إلىّ ولا إلى زوجته :

– لقد استسلمت لهذا الوضع منذ أن اكتشفته .. انكمشت فى المكان الاجتماعى الضيق الذى خصص بى .. وكثير من أمناء المحفوظات يتوددون لرجال السلك السياسى حتى يستفيدوا من الامتيازات الممنوحة لهم .. ويأخذون منهم سجائر رخيصة معفاة من الضرائب .. وخمورا .. و .. و .. وسيارات .. فكل عضو فى السلك السياسى يستطيع أن يشترى سيارتين بلا ضرائب وقد يمنح واحدة منهما لأمين المحفوظات إذا رضى عنه .. ولكنى لم أحاول أن أتودد لأحد .. كنت أشترى علبة السجائر بخمسة شلنات بينما الوزير المفوض الذى يصل مرتبه إلى خمسة أضعاف مرتبى يشتريها بشلن واحد .. ورغم ذلك لم أحاول أن أتودد لأحد .. وعندما ألح علىّ بعض السادة الدبلوماسيين أن يبيعوا لى ما يفيض منهم من السجائر بالسعر المخفض ، ادعيت أنى أبطلت التدخين .. وادعيت أنى أقلعت عن الخمر .. و .. و .. لا أريد أن يكون لأحد منهم جميل علىّ .. لا أريد أكثر مما تقرره لى اللوائح والنظم .. وابتعدت .. انزويت فى البيت الصغير الذى كنت أقيم فيه .. وتعلمت اللغة الألمانية ، وتعلمت الأسبانية أيضاً ، وأخذت دروساً لأتمكن من اللغة الفرنسية والانجليزية .. وقرأت .. قرأت كثيراً .. لم أكن أفعل شيئاً إلا القراءة .. ورغم ذلك لم أسلم من تشنيع السلك الذهبى علىّ .. قالوا عنى إنى بخيل .. وإنى أكتنز

العملة الصعبة .. و .. و .. ولم أهتم بما يقولون ، كان كل همى ألا يؤخذ علىّ شىء فى عملى ..

ونظر طلعت إلى زوجته وابتسم ابتسامة خففت من حدة نظراته ، وقال وقد خف الغضب والحماس فى صوته :

– إلى أن قابلت درية .. إن درية كانت ابنة السفير .. وزوجة السفير التى حدثتك عنها هى الآن حماتى ..

وأحنت درية رأسها ، واحمرت وجنتاها وتعثرت رموشها فى نظرتها ، كأنها ممثلة ناشئة على وشك أن تظهر على المسرح لأول مرة ..

واستطرد طلعت قائلا :

– رأيتها لأول مرة عندما ذهبت إلى بيت السفير لأجرد محتوياته .. الأثاث .. والأطباق .. والشوك .. والملاعق .. والكئوس ، فكل ما فى بيت السفير ملك للدولة .. ومرت بى درية وهى فى الثامنة عشرة من عمرها ، ووقفت تنظر إلىّ برهة ثم هزت رأسها محيية ، وانصرفت .. ولم أشعر أن فى نظرتها شيئاً من التعالى ، ولا فى هزة رأسها شيئاً من الافتعال .. أحسست أنها لو كانت مرت بالوزير المفوض نفسه لنظرت له نفس النظرة وحيته نفس التحية .. وغادرت بيت السفير وصورة درية فى خيالى .. تهتز أمام عينى سواء أغمضتهما أم فتحتهما .. و ..

وقاطعته درية قائلة وهى تحاول أن تضحك :

– طلعت .. لا تحاول أن تقلد الأدباء فى حديثك .. إنك حتى بعد أن تزوجتنى لا تصلح للأدب ..

وضحك دللعت وقال :

– إنى لست فى حاجة لأن أكون أديباً لأروى قصتنا .. إنها حوادث وليست خيالاً ..

ثم التفت إلىّ واستطرد :

– « لم أكن طبعاً أطمع فى الزواج من درية .. ولا أحلم به .. كنت لا أزال منكمشاً فى مكانى الاجتماعى .. ولم تكن درية سوى طيف مر بى وتعلق به خيالى .. وقد رأيتها فى السفارة بعد ذلك عندما كانت تأتى لاصطحاب أبيها إلى البيت .. وتبادلنا نظرات عابرة .. ولم أفهم من نظرتها شيئاً ، ولم تفهم من نظرتى شيئاً .. إلى أن التقينا صدفة فى الحديقة .. كانت حديقة صغيرة قريبة من بيت السفير ، وكنت أذهب إليها كثيراً لأقرأ بعد انتهاء ساعات العمل .. وكنت يومها أقرأ كتاباً عن تاريخ الأزمات الاقتصادية .. وجاءت درية إلى الحديقة تحمل فى يدها قصة .. أعتقد أنها إحدى قصصك .. و ..

وعادت درية تقاطعه وهى تنظر إليه كأنها تقول له إنه ليس فى حاجة إلى نفاقى ، وقالت :

– كانت قصة لطه حسين ..

واستطرد طلعت وقد تضايق من مقاطعة درية :

– آسف .. كانت قصة لطه حسين ..

واسترد ابتسامته وأكمل :

– ولا أدرى كيف اتصل الحديث بيننا .. ولكننا وجدنا أنفسنا نجلس أحدنا بجانب الآخر على أريكة واحدة فى الحديقة .. وكانت تحدثنى عن القصص التى قرأتها .. وكنت أحاول أن أحدثها عن كتب الاقتصاد والمحاسبة التى قرأتها ، حديثاً لم ترحب به درية كثيراً .. ولكننا بعد أن افترقنا ، جريت وقلبت الأرض حتى جمعت من المكتبات ومن أصدقائى مجموعة كبيرة من القصص .. قصص إنجليزية .. وقصص فرنسية .. وقصص ألمانية .. ولأول مرة أتودد إلى الملحق التافه بالسفارة ليقرضنى مجموعة القصص

العربية التى جاء بها من مصر .. وقرأت قصتين طويلتين فى ليلة واحدة .. وفى أسبوع واحد كنت قد قرأت أكثر مما قرأت درية فى خمس سنوات .. وعرفتك .. وعرفت غيرك من كتاب القصة .. وكنا نتقابل فى الحديقة .. درية وأنا .. وكنا ندعى فى الأيام الأولى أن لقاءنا صدفة .. ولكننا بعد أيام واجهنا الواقع وأصبحنا نلتقى على موعد .. ثم .. ثم اعترفنا بالحب .. وحبنا يكبر على مدى الأيام .. ويكبر .. دون أن نناقش وضعى الاجتماعى بالسفارة .. دون أن نحس بالفارق الكبير بيننا .. إنها من سلك الذهب .. وأنا من سلك النحاس .. الصفيح .. ولكننا بلا تعمد منا أبقينا حبنا سراً بيننا ، رغم أننا لم نعد نكتفى باللقاء فى الحديقة .. أصبحنا نذهب إلى شاطىء النهر .. وإلى الملاهى .. .. ثم عندما لمحنا أحد أعضاء السفارة من بعيد ، أصبحنا نلتقى فى بيتى .. ثم وصل بنا الحب إلى القمة .. قمة الحب .. الزواج .. وعندما بدأنا نفكر فى الزواج صدمتنا الحقيقة التى حاولنا أن نهرب منها طويلاً .. سلك الذهب .. وسلك النحاس .. ولكنى سألت درية .. هل أنت موافقة على الزواج .. وقالت : موافقة .. قلت : بأى ثمن ؟ وأجابت .. بأى ثمن .. وساعتها أحسست أنى أقوى إنسان فى العالم .. أحسست أنه لو اجتمع الجن والإنس فلن يستطيعوا أن يمنعوا زواجى من درية .

وتنهد طلعت ، وتقطب حاجباه ، وسكت برهة ، بينما وضعت درية رأسها بين يديها ، وأسقطت عينيها فى طبق الطعام .. وأنا أنظر إلى طلعت مبتسماً كأنى أشجعه على الاستطراد .

واستطرد قائلاً :

– « اتفقنا على أن تفاتح درية أمها فى أمر زواجنا كخطوة أولى ولكنها ما كادت تلمح لها بالموضوع .. حتى صرخت الأم

واعتبرت مجرد التفكير في مثل هذا الموضوع إهانة .. فضيحة .. إنه أمين محفوظات .. ألم تجدي سوى أمين المحفوظات .. إن المستشار أعزب .. والسكرتير الأول أعزب .. وإذا كنت من غواة الفقر فأمامك الملحق .. إلا أمين المحفوظات .

وبدأت الأم تراقب ابنتها .. ولكن درية استطاعت أن تتصل بي لتروي لي ما حدث .. ولم أفكر طويلا .. لم أتردد .. وفي اليوم التالي ذهبت إلى سيادة السفير في مكتبه ، وبكل هدوء ورزانة فاتحته في أمر زواجي من ابنته .. ولكنه قبل أن أتم كلامي كان يصرخ في وجهي بكل حدة : « انت بتهينيني يا ولد .. امش اطلع بره » .. وحاولت أن أفهمه أني شاب مثقف حاصل على دبلوم عال .. وأني من عائلة طيبة .. وأن أخلاقي لا شبهة عليها .. ثم إن ابنته تحبني .. وأني أعبر عن رغبتها كما أعبر عن رغبتي .. ولكنه لم يحاول أن يستمع لي .. عاد يصرخ وهو يضرب على المكتب بكلتا يديه « امش اطلع بره .. بره .. بره » .

والتمع الأسى في عيني طلعت ، وتقلص وجهه كأنه يكبت غيظاً كبيراً .. وقال :

– وخرجت ..خرجت من السفارة كلها .. لقد أصدر السفير أمراً بمنع دخولي من باب السفارة .. وأرسل برقية عاجلة يطلب إعادتي إلى القاهرة مدعياً أني ارتكبت فضيحة أخلاقية .. وفي الوقت نفسه قرر أن يرسل ابنته إلى بلد آخر لتعيش مع عائلة أحد أصدقائه .. سفير آخر .

وانتشرت القصة بين كل أعضاء السفارة وأعضاء الجالية .. ونظرات الحقد والكراهية تلاحقني .. خيل إليّ أنهم سيتجمعون عليّ ويرجمونني بالحجارة .. ولكني ازددت عناداً .. وازددت قوة .. ودرية أيضاً .. وأنت تعلم أن الحب دائماً أقوى من أني

يقاوم .. إنه كالماء في رقته وحلاوته ، وفي قوته عندما يفيض ويكتسح كل شيء .. وقد هربت درية من بيت السفير .. قفزت من الشباك بقميص النوم .. وكنت قد اشتريت سيارة صغيرة .. اشتريتها بلا إعفاءات من الضرائب .. بلا امتيازات .. وتركت استقالتي من وزارة الخارجية مع أحد السعاة .. وأخذت درية في الليل ، وسافرنا إلى ألمانيا .. وتزوجنا .. زواجاً مدنياً ..

ورفعت درية عينيها إليّ كأنها تحاول أن تقرأ وقع القصة عليّ.. ونظر إليّ طلعت ، وعندما لم أعلق بشيء استطرد في حدة :

– لم نسجل زواجنا في سفارتنا .. لا لأني كنت خائفاً ، ولكن لأني في تلك الأيام كنت لا أريد من أي سفارة أي شيء .. وقد ارسلنا برقية إلى والد درية نبلغه بخبر زواجنا ، ونطمئنه على صحتها وسلامتها .. ولكنه كان في تلك الأثناء يحاول اتهامي بالاختلاس ، حتى يصبح هناك مبرر للقبض عليّ .. ثم نصحوه في السفارة بأن يسكت حتى لا تكبر الفضيحة . وبعد شهور نقل إلى القاهرة ، وكان قد وصل إلى سن المعاش ..

ونظرت إليّ درية .. وخيل إليّ أن دموعاً في عينيها ..

واستطرد طلعت وقد بدأت أنفاسه تهدأ :

– « لقد اشتغلت عاملاً بأحد المصانع بمجرد وصولي إلى ألمانيا .. وسكنا في غرفة فقيرة في حي العمال .. وكانت درية تطبخ وتغسل وتكنس .. كانت منذ اليوم الأول خير زوجة ، وهي التي عاشت في القصص طول حياتها ، ولم تكن قد تجاوزت التاسعة عشرة .. ولم أكن أستطيع أن أبقى عاملاً فقيراً ، كان في صدري سياط تدفعني إلى النجاح لأثبت لأهل درية ، ولرجال السلك الذهبي كلهم ، أن من حقي أن أتزوج منهم .. أني خير من احسن واحد فيهم حتى لو كان أصلي أمين محفوظات .. وقد

تركت المصنع بعد شهرين ، واشتغلت كاتب حسابات فى شركة .. لم أكن أكتب الحسابات ، ولكنى كنت أتعلم .. كنت أدرس السوق .. وأقلعت عن قراءة القصص ـ تركتها كلها لدرية ـ وبدأت أقرأ وأدرس البورصة .. واستطعت أن أحقق بعض صفقات .. صفقات صغيرة .. ولكنها مكنتنى من أن أدس نفسى بين رجال الأعمال وأن أزداد معرفة بالسوق العالمى .. ثم تركت الشركة التى أعمل فيها ، واشتغلت فى مكتب تصدير واستيراد يملكه رجل لبنانى .. وبعد عام واحد كنت شريكه وبعد عامين فتحت مكتباً لنفسى .. وأصبح المكتب شركة .. شركة كبيرة لها فروع فى عشر دول أوربية ..

ورفع طلعت كأس النبيذ ، ورشف نصفه فى جرعة واحدة ، ثم مسح شفتيه بالفوطة .. واستراح كأنه انتهى من قصته .. ولكنه ما لبث أن قهقه عالياً ، وقال :

– إنى أكسب الآن فى أسبوع واحد ضعف مرتب أى سفير فى عام ، بما فيه بدل التمثيل وفروق الامتيازات .

ثم ألقى الفوطة من يده وأزاح كرسيه إلى الوراء ، وهمّ بالقيام .. ونظرت إليه درية قائلة فى عجل كأنها تستمهله :

– إنك لم تذكر أننا تزوجنا زواجاً شرعياً ..

وقال طلعت وهو يبتسم فى ازدراء كأنه لم ينس شيئاً مهماً :

– كان ذلك بعد خمس سنوات من زواجنا .. وبعد ست سنوات من لقائنا .. وكان أهل درية قد صفحوا عنها وعنى بعد أن حققت كل هذا النجاح ، وجمعت كل هذه الثروة .. وسافرنا إلى القاهرة .. وعقدنا هناك زواجنا مرة ثانية .. زواجاً شرعياً .. فى البيت ، لا فى سفارة .. إنى ما زلت لا أريد أى شىء من أية سفارة .. وكان زواجنا الشرعى فى السر أيضاً ..

وقالت درية :

– ولكنى لبست الثوب الأبيض .. ثوب العروس .

وقال طلعت وهو يضحك :

– لبسته لى وحدى ..

وتنهدت درية ، ثم قامت من مقعدها وقالت فى أناقة سيدة السلك الدبلوماسى :

– هل نشرب القهوة بجانب المدفأة ؟

● ● ●

وهمست درية لى ونحن نتناول القهوة :

– هل تعتقد أننا أخطأنا ؟

قلت :

– لا ..

قالت :

– إنها كالقصص التى تكتبها .. ربما استمددت الشجاعة يومها من بطلات قصصك ..

ولم أجبها .. سرحت .. ولم أكن سارحاً فى القصة التى سمعتها .. ورغم أنها كانت المرة الأولى التى أسمع فيها عن العلاقة بين السلك الدبلوماسى والسلك الإدارى ، إلا أن هذا أيضاً لم يكن مثيراً لى .. فقد كنت أنظر إلى طلعت نظرة جديدة .. كنت أنظر إلى البدلة التى يرتديها ، إنها كبدلة السفراء .. الجاكتة السوداء ، والبنطلون المخطط « الفانتزى » .. ورباط عنق رمادى مشبوك فيه دبوس من الماس .. ثم هذه الخادمة التى ترتدى ثوباً أسود و « مريلة » بيضاء وعلى رأسها تاج أبيض من القماش المنشى .. إنها كالخادمات اللاتى يستقبلننى عندما يدعونى سفير إلى العشاء .. والخادم النوبى الذى كان يقدم لنا الطعام مرتدياً

بدلة سوداء رسمية .. ثم السيارة المرسيدس .. إن كل سفرائنا يشترون سيارات مرسيدس .. وقد كان طلعت يستطيع أن يشترى كاديلاك أو بويك ، خصوصاً أنه لن يبيعها فى القاهرة كما يفعل السفراء .. ولكنه اشترى مرسيدس .. كالسفراء !

إن طلعت .. رغم كل شىء .. ورغم كل هذا النجاح الذى حققه .. لا يزال أمين المحفوظات الذى يتطلع ليكون سفيراً .. إنه لا يزال يعانى « عقدة السفير » .

والتفت إلى درية ...

إنها قوية .. محترمة .. رائعة .. ولكنى ترددت كثيرا قبل أن أحكم بأنها سعيدة ..

واقترب الخادم النوبى الأنيق ، وأحنى رأسه أمام طلعت وأشعل له سيجارا طويلاً ، وقال :

– إكسلانس .. هل ستحتاج إلى السيارة الليلة ؟

و « إكسلانس » هو اللقب الذى يخاطب به السفراء !!!

إنجلترا

فتحية فى لندن ..

لندن عام ١٩٤٦ .. بعد انتهاء الحرب مباشرة .. وكنت فى السابعة والعشرين من عمرى .. وكانت المرة الأولى التى أسافر فيها إلى أوربا موفداً فى بعثة دراسية قصيرة لزيارة دور الصحف الانجليزية والفرنسية .. ولم أكن متلهفاً إلى زيارة دور الصحف بقدر ما كنت متلهفاً إلى زيارة أوربا نفسها .. كان خيالى مزدحماً بعشرات الكتب والقصص التى قرأتها عن أوربا ، وكنت أريد أن أرى بعينى وألمس بيدى هذا الخيال .. أريد أن أعيش حيث عاش طه حسين وتوفيق الحكيم والتابعى والصاوى ، وأوسكار وايلدا ، وسمرست موم ، وبرناردشو ، وجى موباسان .. و .. و .. وكل الذين كتبوا قبلى .. وكانت لندن هى أول مدينة أهبط إليها .. خائفاً ، مرتبكاً ، ملهوفاً .. كأنى مراهق فى طريقه إلى أول موعد غرام ..

وصعقت عندما وقعت عيناى على لندن ..

إنها خراب ..

أكثر من نصف بيوتها مهدم .. والدكاكين الكثيرة التى اشتهرت بها لندن ، فارغة ، بعضها يعرض ثوباً ، أو قطعة من القماش ، أو أدوات منزلية أو آلات ، ولكن كلها مكتوب عليها بالخط العريض « للتصدير » .

كل شىء كانت تصنعه بريطانيا فى ذلك الوقت كان للتصدير ،

حتى تعوض بثمن بيعه للخارج نفقات الحرب .. حتى تسترد ثمن النصر .. ولم تكن الحكومة تخفى ذلك عن الناس .. إنها تعرض كل المنتجات فى نوافذ الدكاكين وتكتب عليها بالخط العريض «For Export» .

كل شىء جميل للتصدير .. كل شىء جيد للتصدير .. والشعب مفروض عليه التقشف .. كل ما يحتاجه الناس بالبطاقات .. الأكل ، واللبس ، حتى معجون الاسنان وصابون الحلاقة .. بالبطاقة .. والناس تحتمل .. وتتذمر .. ولكنه ليس مجرد تذمر .. إن الحرب فعلت فى أعصاب الناس أكثر مما فعلت فى بيوت لندن .. هدمت نفوس الناس .. إن الناس فى لندن كما لم أتصورهم أبدا .. إنهم مجانين .. ناس يملؤهم الحقد والغيظ والعنف والضياع .. والرجل الذى قضى خمس سنوات يحمل بندقيته ويقتل أعداءه ، عاد إلى بلده وهو لا يزال يحمل بندقيته ويريد أن يقتل ، وعندما لم يضعوا أمامه عدوا يقتله ، تصور أن كل الناس أعداؤه .. والبنات والنساء اللاتى قضين سنوات الحرب فى خوف وفزع وانحلال .. لا يزلن يعشن فى هذا الخوف والفزع والانحلال .. لا تقاليد .. لا مبادىء .. لا حدود .. لا عائلات .. والصحف تصدر كل صباح حافلة بأخبار جرائم شاذة غريبة .. جرائم ليس لها دافع ، ولا منطق إلا الجنون ..

وفى طريقى من المطار إلى الفندق وجدت نفسى أدخل فى مشادة عنيفة مع سائق التاكسى .. إنه يريد أن يسرقنى .. يسرقنى بلا ذوق وبلا شطارة ، إنما يريد أن يسرقنى فى وقاحة .. وقد تعودت أن أستسلم لمن يسرقنى بذوق .. بلباقة .. ولكنى وجدت نفسى أستسلم لهذه السرقة الوقحة .. ثم بعد عدة دقائق وجدت نفسى فى مشادة أخرى مع بواب الفندق .. إنه يريد

أن يسرقنى هو الآخر .. و .. وفى خـلال أيام وجدت نفسى أعيش فى خوف من لندن .. كل تصـرفاتى مبعـثها الخوف .. أسـير فى الشارع محترساً .. وأتعامل مع الناس فى حذر .. وعصب الخوف فى رأسى ، متيقظ دائماً ، متوتر دائماً .. ثم وجدت نفسى أنسحب من لندن كلهـا .. وأخـتبىء منهـا .. أختـبىء فى النادى المصـرى هناك .. كنت أنتهى من الساعات التى أقـضيها فى دور الصحف ، ثم أجـرى إلى النادى المصـرى .. أتناول غـدائـى فى النادى .. وعشائى فى النادى .. وأقضى أمسيـاتى بين مجموعة قليلة العدد من الأصدقاء المصريين الذين كانوا فى لندن أيامها ، كأنى أحتمى بهم من الشعب الانجليـزى الذى لم يكن قد صدق بعـد أن الحرب قد انتهت ..

•••

وكنا جالسـين فى بهو النادى المصرى بعـضنا يلعب الطاولة ، وبعـضنا يتناقش فى الـسيـاسـة .. وأغلق صـديقى عـبـد الكريم صندوق الطاولة فجأة ، ثم وقف على قدميه صائحا :

– لنذهب إلى فتحية ..

وانفتحت الأفـواه كلها فى ضحكات صاخبـة .. ونشط الجميع للخروج من النادى ، وقـد التمع الفـرح فى عيونهم .. فـرح ضاج عنيف ودرت بعـينى بين الأفـواه المفتـوحـة أحاول أن أسـأل عن فتـحية .. من هى ؟.. ولكن لا أحـد يجيبنى ، كـأن فتحـية ظاهرة بديهـيـة لا تسـتـحق السـؤال .. كـأنهـا تشـرشل ، أو هتلر ، أو موسيلينـى .. لا أحد يجهلها .. .وضاع تسـاؤلى وسط الضحكات الصاخبة والتعليقات الساخرة التى أثارتها فتحية ..

وخرجوا من النادى وأنا معـهـم .. وسرنا فى شارع « كيرزون ستريت » الذى تقع فيه دار السـفارة ، ثم انحرفنا إلى شارع آخر

فى حى « شبـرد ماركت » .. واقتـرب صديقى عبـد الكريم منى ، وأخذنى من ذراعى ، وهمس فى أذنى :

– عندما تقابل فتحيـة قل لها إنك قابلت حسن فى القاهرة وإنه حدثك عنها ..

قلت فى دهشة :

– حسن من ؟..

قال:

– حسن صدقى ..

قلت :

– ولكنى لا أعرف حسن صدقى ..

قـال ضاحكاً ، وهو يـضغط على ذراعى كـأنه يوصـينى بألا أكون غبياً :

– لا يهم .. إننا كلنا نعـيش هنا ببركـة حسن صـدقى .. الذين يعرفونه والذين لا يعرفونه ..

وكنا قد وصلنا إلى « بار » أو « حـانة » على الطراز الانجليزى العتيـق .. لها بابان ككل حانات انجلترا .. وكـلا البابين يؤدى إلى نفس البهو الواسع الذى تمتد فى صـدره مائدة البار العالية ، ومن خلفـها حـائط من المرايا ، مـعلق عليـه ـ فـوق أرفف ـ زجاجـات الخمر .. ورغم ذلك يجب أن تختـار الباب الذى تدخل منه .. فإنك لو دخلت من الباب الذى على اليمـين ، تدفع ضعف ثمن المشروب الذى تدفـعـه لو دخلت من الـبـاب الذى على اليـسـار .. رغم أنك سـتشـرب نفس نوع الخمـر ، ومن نفس البرمـيل أو الزجاجـة ، وستجلس علـى نفس المقاعد ، وتخدمك نفس الجرسـونة ، ولكنها تقاليد الارستقراطية الانجليزية ، فالارستقراطية الانجليزية لم تعد طبقـة صاحبة امـتيازات مادية ، ولكـنها طبقة صـاحبة امتـيازات

مظهرية أو معنوية .. إنها مجرد إحساس .. احساس بأنك ارستقراطى .. والارستقراطى الانجليزى مستعد لأن يدفع ضعف ثمن شوب البيرة ، ليحتفظ بإحساسه كارستقراطى لمجرد أنه يخطو من باب مخصص للأرستقراطيين ..

ودخلنا من الباب الذى على اليسار .. باب العمال .. واستقبلتنا البنات الجرسونات بترحيب كبير .. إنهن يعرفن كل أصدقائى المصريين بالاسم .. وسعين معنا حتى وجدنا لنا بصعوبة مائدة صغيرة وسط الزحام الكبير الذى يملأ الحانة .. وجلست أرقب كل من حولى من خلال أبخرة الدخان والخمر التى تحرق عينى .. إن العمال وباعة الحوانيت يتزاحمون فى الجانب الأيسر من الحانة .. وفى الجانب الأيمن يجتمع الأرستقراطيون ، ولا يفصل بين الجانبين شىء .. لا سور .. ولا مائدة .. ولا لوحة .. إنه مجرد انجذاب كل فريق بعضه إلى بعض .. ولا فارق بين الاثنين .. لا فى الوجوه ، ولا فى الثياب .. ولا فى أسلوب الإقبال على شرب الخمر .. ولكنهم فى جانب العمال ، يتحدثون بلهجة أقرب إلى « الكوكنى » .. أى اللهجة الشعبية التى لا أفهم منها شيئاً .. وهناك يتحدثون بلغة أقرب إلى الانجليزية السليمة أستطيع أن أفهمها .. وخيل إلىّ أن الأنوف فى الجانب الذى أجلس فيه مستديرة ، وفى الجانب الآخر مدببة .. لا أدرى لماذا .. ولكن هذا هو ما خيل إلىّ .. وكل فريق من الجانبين يحترم الآخر ويعطيه كل حقه .. الفريق الارستقراطى لا يعترض على صراخ العمال وهم يرفعون عقيرتهم السكرى بأغانى بعضها بذىء .. والعمال لا يعترضون على قنزحة الارستقراطيين .. والحانة كبيرة .. إنها أكبر مما كنت أتصور .. ولعلها من أفخم حانات لندن .. وقد كان تشرشل يتردد عليها قبل أن يصبح رئيساً للوزراء .. ووينديل

ولكى الذى طاف العالم أثناء الحرب مندوباً عن الرئيس روزفلت ، وكتب كتاب « عالم واحد » ، جاء إلى هذه الحانة وكتب عنها فى كتابه .. و .. وأنا لا أكف عن التلفت حولى .. خيل إلىّ انى ألتقى بالشعب الانجليزى لأول مرة .. وأن المكان الوحيد الذى تستطيع أن ترى فيه الشعب الانجليزى هو « البوب » أى البار الانجليزى .

ورفع صديقى عبد الكريم ذراعه إلى أعلى ، ولوّح بيده لسيدة مقبلة علينا ، وهو يصيح :

– فتحية ..

وشهقت عيناى من الدهشة ..

إن فتحية سيدة انجليزية تكاد تكون فى الخمسين من عمرها .. سمينة .. سمينة جدا .. وذراعاها مكتنزان بشكل غريب ، كان كل جزء منها ماسورة مركبة فى الأخرى بقلووظ .. ولونها أبيض باهت مشرب بالحمرة ، كلون لحم الخنزير المسلوق .. وشعرها مصبوغ باللون الذهبى الفاقع .. ووجهها ملغمط بأصابع صارخة .. يكاد يكون وجه بلياتشو ..

ووقف الأصدقاء يستقبلونها ، وكل منهم يخفى خلف أسنانه ابتسامة ساخرة .. ونظرات « الحداقة المصرية » تلمع فى عيونهم .. وكل منهم يقول كلمة .. وانحنى عبد الكريم وقبل يدها .. ثم رفع رأسه قائلا :

– عندنا اليوم أخبار سارة ..

ثم التفت إلىّ وقدمنى لها قائلا :

– لقد جاء من مصر أمس ..

ونظرت إلىّ فتحية طويلا ، ولمحت فى عينيها لهفة عنيفة .. ثم استدارت إلى أحد الجالسين على المائدة المجاورة ، ووضعت يدها على المقعد الذى يجلس عليه ، وقالت فى حزم :

– أنت .. أعطنى مقعدك !

والتفت إليها الرجل الانجليزى المخمور ، وقال وهو يترك لها المقعد :

– بكل سرور .. فتحية !

إن الانجليز أيضاً ينادونها باسم فتحية ..

وجلست معنا قائلة :

– ازيكم يا أولاد ..

ثم ركزت عينيها مرة أخرى على وجهى وفى عينيها هذه اللهفة العنيفة .. ولم تتكلم .. ظلت عيناها على وجهى برهة ، ثم حولت عينيها إلى إحدى البنات الجرسونات .. وتغيرت النظرة فى عينيها .. أصبحت نظرة آمرة مسيطرة .. وجاءت البنت هارعة ووقفت أمامها كأنها ترتعش .. فمالت فتحية على أذنها وهمست ببضع كلمات ، والتمعت الفرحة فى عينى أصدقائى . لقد فهموا أنها أمرت بدعوتهم إلى شراب على حسابها .. وتغامزوا فيما بينهم كأن خطتهم نجحت .. وعادت فتحية تنظر إلىّ وقد عادت إليها هذه النظرة الملهوفة .. واستطعت أن أركز عينى على وجهها .. وخيل إلىّ أن تحت هذه الأصابع الصارخة ، وجهاً طيباً .. ساذجاً .. وأحسست بهذه الطيبة والسذاجة كأنها أعمق من ملامح السيطرة الآمرة التى خاطبت بها فتاة الحانة ..

والتفتت فتحية إلى الصديق الذى يجلس بجانبها وقالت :

– ماهر .. هل انتهت مشاكلك مع صاحبة البنسيون !

وقال ماهر :

– تقريباً .. ولكنى أتمنى لو أنك حادثتها مرة أخرى فى التليفون ..

وقالت وهى تلوى شفتيها :

– إنها امرأة قذرة .. ولكن لا تخف .. ستخضع فى النهاية !..

ثم التفتت إلى صديق آخر قائلة :

– سيد .. هل أعطاك البوليس بطاقة التموين ..

وقال سيد :

– لا .. ليس بعد ..

وقالت فتحية فى حزم :

– سأتصل بالضابط غدا ..

ثم عادت تلتفت إلىّ ، وتنظر فى وجهى .. إنى أعلم أنها تنتظر منى أن أقول شيئاً .. ولكنى لا أدرى ماذا أقول ..

وأخيراً سألتنى فى صوت خجول خافت ، ورموشها ترف فوق عينيها كأنها فتاة مراهقة صغيرة :

– ما هى أخبار حسن ؟

سألتنى كأن المفروض فى كل مصرى أن يعرف حسن ، أو كأن حسن شخصية وحيدة فى مصر .. كأبى الهول .. أو توت عنخ آمون ..

وترددت برهة ، ولكن عبد الكريم لكزنى فى جنبى ، فانطلقت قائلا :

– إنه بخير .. وقد حدثنى عنك كثيرا ..

وخيل لى أن الصبغة الحمراء التى تكسو وجنتى فتحية ، قد ازدادت احمراراً ، وقالت وهى تضحك ضحكة صغيرة :

– إن حسن إنسان عاطفى .. يبالغ كثيرا فى كلامه ..

ثم رفعت إلىّ عينيها قائلة كأنها تتوسل إلىّ أن أبلغها بنبأ سار :

– ألا تعلم متى سيعود إلى لندن ..

وعدت أتردد .. أشفقت عليها من الكذب .. ولكن عبد الكريم عاد

يلكزنى فى جنبى .. وعيون الأصدقاء تحاصرنى كأنها تهددنى .. فقلت :

– الذى أعلمه أنه يستعد للسفر .. ربما يصل فى خلال أسبوعين أو ثلاثة ..

وتهلل وجه فتحية وصاحت :

– صحيح ؟!

قلت فى أسى :

– صحيح ..

وجاءت فتاة الحانة تحمل زجاجة « جين » وبضع كئوس .. وفرح الأصدقاء بالزجاجة .. لقد كان « الجين » أيامها لا يباع إلا فى السوق السوداء .. وانشغلت فتحية بفتح الزجاجة وملء الكئوس .. والتفت إلى الأصدقاء قائلاً باللغة العربية :

– والله حرام عليكم ..

وعاد عبد الكريم يلكزنى قائلاً :

– اسكت .. إنها تعرف كثيراً من الكلمات العربية .. بل إنها حفظت الفاتحة وقل هو الله أحد ..

ومد الصديق كمال عنقه وقال لفتحية :

– فتحية .. صدقينى .. دعيك من حسن ، وأحبينى أنا ..

ونظرت إليه فتحية فى ازدراء ، ولوت شفتيها ، وقالت فى تأفف :

– أنت سخيف ..

ثم التفتت إلىّ قائلة وهى تبتسم لى ابتسامة كبيرة :

– غدا الأحد .. إنى أدعوك عندى لقضاء السهرة ..

ثم طافت بعينيها على بقية الأصدقاء وقالت :

– كلكم مدعوون .. أنتم تعرفون البيت طبعا ..

وقامت وتركتنا مع زجاجة « الجين » .. وخيل إلىّ وهى تسير بين الموائد بجسدها السمين النشط أنها ملكة تشرف على رعاياها .. قوية .. آمرة .. مسيطرة ..

•••

إن فتحية هى صاحبة الحانة ..

وكان حسن طالباً فى جامعة لندن يدرس الأدب الانجليزى قبل الحرب وعرف فتحية عندما بدأ يتردد على حانتها ليسكر .. إنه يشرب كثيرا قبل أن يسكر .. وقد اكتشف أن أرخص وسيلة لشرب الخمر ، هى أن تحبه صاحبة الحانة .. واستطاع بذكائه الحاد .. ووسامته .. وشبابه .. وفحولته .. أن يقنعها بحبه .. وقد أحبته فعلا .. أحبته إلى حد أن خضعت لجميع نزواته .. ولأنها تحبه فتحت حانتها ، وبيتها ، وقلبها لكل أصدقائه المصريين .. وربما لم يحبها حسن .. ولكنه لم يعد يستطيع الاستغناء عنها .. لقد تسللت فى حياته إلى حد أن أصبحت كل دقيقة من عمره معتمدة عليها .. وهو الذى أسماها فتحية .. وفرحت هى بهذا الاسم .. وأصرت على أن يناديها به كل الناس .. حتى اشتهرت به .. تشرشل نفسه كان يناديها باسم فتحية .. وتعلمت من حسن كثيراً من اللغة العربية ، وتعلمت الفاتحة وسورة من القرآن ، وكانت مستعدة أن تشهر إسلامها لو طلب منها حسن أن تسلم .. وكانت مستعدة أن تبيع حياتها وتسافر معه إلى مصر ، لو طلب منها حسن .. كانت مستعدة لكل شىء .. وتحملت منه كل شىء ، حتى مغامراته الغرامية .. كانت كل ما تحرص عليه فى هذه المغامرات ألا يذهب حسن مع الفتاة الواحدة أكثر من مرة .. لو خرج معها أكثر من مرة ، اختفت البنت .. اختفت من الدنيا !!

وقامت الحرب .. وحاول حسن أن يعود إلى مصر مع بقية

المصريين الذين عـادوا عقب إعلان الحـرب .. ولكنه لم يعد .. ربما عطلت فتـحية إجـراءات سفره .. من يدرى .. إنهـا صاحبـة نفوذ كبير .. وبقى حسن فـى لندن ، وانقطعت موارده المالية التى تأتيه من مصر ، فانتـقل إلى بيت فتحية .. وعاش فيه .. وتولت فـتحية جمـيع أمره .. بل تولت أمـر كثـير من المصـريين أصدقـاء حسن الذين بقـوا بعد الحـرب .. وكانت هذه هى أسـعد أيام فـتحـية .. لم تستطع الغارات والقنابـل والموت الذى كان يجثم على لندن أن يقلل من سعـادتها فى تلك الأيام .. وحسن هو السيـد .. هو الآمر الناهى .. وهى تخضع له كزوجـة شرقية ضعيفـة مستكينة ، كل ما طلبتـه منه فى تلك الأيام ألا يتردد على حانتهـا .. كانت تعطيه نقوداً لـيشرب فى الحـانات الأخرى .. ولكن لـيس حانتـها .. ربما لأنها لم تـكن تريده أن يراها وهى متـمالكة شـخصيـتهـا الآمرة المسيطرة .. وربما لأنهـا خافت أن يسـيطر حسن على الحانة كـما سيطر عليها .. ولم يكن حسن يهـمه أن يسيطر على الحانة .. كان كل ما يهمه أن يسكر فى أى حانة ..

ثم ..

استطاع حـسن فى يوم من الأيام أن يسافر إلى مصـر .. عمل فى إحـدى مراكب نقل الجنود المتـجهـة إلى القنال .. وترك خطاباً رقيقـاً لفتحية ، يقـول لها فيه إنه لا يستطيع أن يعـيش بعيداً عن بلده وأهله فى أيام الخطر ..

وبكت فـتحـيـة كـثـيـراً .. بكت أكـثـر مما بكت على كل أهلهـا وأصدقـائها الذين قـتلوا فى الحرب .. وأخذت خطابـه تقرؤه على كل زبائنها .. وهى تبكى ..

ومن يومها وهى تنتظر عودته ..

ومن يومـهـا وهى تجـرى وراء كل مـصـرى يـصل إلى لندن لتسأله : متى يعود حسن ..

والمصـريون يحبـونها .. لأنهـا تفـتح لهم حانتـها ، وبيـتهـا ، وقلبها .. من أجل عيون حسن ..

• • •

وانصرفنا ليلتـها فى الساعـة العاشرة والنصف ـ وهو مـوعد إغلاق جـميع الحانات فى انجلترا ـ بـعد أن سمعت قـصة فتحـية وحسن ..

وقـبل أن أخرج من الحـانة ، هرعت ورائى فـتحـيـة وناولتنى كيساً صغيراً قائلة :

– خذ .. هذا لك ..

قلت :

– ما هذا ؟

قالت :

– إنك لا تسـتطيع أن تعـيش فى لندن جـوعـان .. إن وجـهك أصفر ..

وكـان فى الكيس خـمـس بيـضـات ..والبـيض أيامـهـا كـان بالبطاقـة .. بيضة واحـدة فى الأسبوع للفـرد .. وخمس بيـضات تساوى ثروة فى السوق السوداء ..

وأخذت البيضـات الخمس ، وأعطيتها لخادمة الفـندق لتسلقها لى .. وسلقتها وأعادتها لى ثلاثاً فقط ..

• • •

ولما كـانت الليلة التـاليـة ، اجتـمـعنا فى النادى المصـرى ، ثم توجهنا إلى بيت فتحيـة .. بيت فى حى سوهو ، يقف مستنداً على « سقالات » خـشبية بين عـشرات البيوت المهدمـة من أثر الغارات الجوية ..

وشقة فتحية صغيرة .. وكان ينتظرنا فيها أربع بنات شابات ، اثنتان منهن من بنات الحانة .. ومائدة زاخرة بكل الممنوعات .. كل ما فى السوق السوداء الانجليزى من أصناف الطعام والخمر .. حتى النبيذ والشمبانيا كانا هناك ..

وجلست فتحية بجانبى طول الليل .. وطول الليل تتحدث عن حسن . تحدثت عنه أكثر مما سألتنى عنه .. كأنها كانت تحاول أن تتباهى أمامى بأنها تعرفه أكثر منى .. وكانت تضع فى حديثها كثيراً من الكلمات العربية كأنها تتباهى علىّ أيضا باللغة العربية .. ثم قامت فجأة ، وفتحت درجاً صغيراً ، وأخرجت منه علبة من الصفيح ثم عادت بها .. إن بها قطعة من الحشيش .. ودون أن تسألنى بدأت تحشو سيجارة .. تحشوها بطريقة فنية كأنها قضت عمرها كله تحشو سجائر الحشيش ..

ومدت يدها بالسيجارة إلىّ ، وقلت :

– شكراً .. لا أدخنه !

ونظرت إلىّ فى دهشة كبيرة ، وقالت :

– لا تدخن الحشيش ؟

قلت وأنا أبتسم لها حتى أهدىء من روعها :

– لا ..

قالت :

– ولكن حسن يدخنه ..

قالتها كأن ما يفعله حسن يجب أن يفعله جميع المصريين .. وقلت :

– ربما لأنى أختلف عن حسن قليلا ..

وهزت كتفيها بلا مبالاة ، وأشعلت السيجارة لنفسها ، وبدأت تدخنها فى هدوء .. ومزاج ..

ماذا فعلت بفتحية يا حسن !!

وسألتنى والدخان الأزرق يلفنا :

– أين تقيم ؟

قلت متنهداً :

– أقمت فى ثلاثة فنادق خلال أسبوع .. كل فندق يعطينى يومين لا غير ، ثم يطردنى .. والآن فى فندق « رامبرانت » .

قالت وهى جالسة تدخن سيجارتها كأنها معلمة فى سوق الفراخ تدخن الشيشة :

– ستنتقل غدا إلى بنسيون أعرفه .. وترتاح فيه .. دعك من الفنادق .. إنهم لصوص .. إليزا ستمر عليك غداً وتصحبك إلى البنسيون ..

ثم نادت إليزا .. إحدى البنات المدعوات .. وألقت إليها بتعليماتها ..

وعلى الجرامفون أسطوانة صاخبة .. وأصدقائى يرقصون مع البنات .. ويصرخون .. وكلما نقصت زجاجة من الزجاجات التى على المائدة .. ارتفع صوت الصراخ أكثر .. واشتد الرقص .. ثم أحاطوا بى فى دائرة وأخذوا يدورون حولى وهم يغنون الأغنية الانجليزية المعروفة : « إنه صديق طيب مرح » ..

كانت ليلة صاخبة ..

•••

وجاءت « إليزا » فى اليوم التالى ، وحملتنى وحملت حقيبتى إلى البنسيون الذى اختارته لى فتحية .. بنسيون فى حى راق قريب من هايد بارك .. والإيجار رخيص إلى حد أنى لم أصدق أن هذا هو الإيجار الذى يدفعه كل السكان .

وأصبحت كلما احتجت إلى شىء ذهبت إلى فتحية .. بل إنى

تعبت مرة فى الحصول على بطاقة لحضور إحدى جلسات مجلس العموم البريطانى .. وقلت لفتحية .. فابتسمت لى ابتسامة كبيرة ، وقالت :

– ولا يهمك ..

ثم مدت رأسها إلى نهاية الحانة حيث يجتمع فريق الارستقراطيين ، وصاحت :

– جورج ..

والتفت إليها رجل لا أعرفه .. وذهبت إليه وقالت له كلمتين .. ثم عادت إلىّ قائلة :

– غداً ستصلك البطاقة ..

ووجدت البطاقة فعلا فى اليوم التالى .. جاءتنى مع رسول خاص إلى البنسيون .. وعندما حضرت الجلسة شاهدت « جورج » جالساً بين أعضاء مجلس العموم ..

ثم ..

ذهبت إلى النادى المصرى فى إحدى الأمسيات ، فوجدت عبدالكريم وماهراً جالسين وهما غارقان فى وجوم وزهق .

وقلت :

– ما لكم يا جماعة ؟!

ورفع عبد الكريم رأسه ، وقال :

– وصل حسن ..

وضحكت قائلا :

– لن تسأل فيكم فتحية بعد اليوم .

ونظر إلىّ ماهر كأنه يلومنى على ضحكتى ، وقال :

– لقد عاد حسن ومعه زوجته ..

وأحسست بشىء يقبض صدرى ..

حسن تزوج .. وماذا نفعل بفتحية ..

كأنى أصبحت مسئولاً عن فتحية ، وعن عواطفها .

وقال عبد الكريم :

– المهم .. كيف نبلغ فتحية بالخبر ؟!

وقال ماهر :

– والأهم .. هو ماذا يكون وقع الخبر عليها .. لقد انتظرته طويلاً .. خمس سنوات .. رفضت خلالها كل رجل تقدم لها .. والآن يعود إليها متزوجاً .

قلت :

– أعتقد أننا يجب أن نذهب إليها الآن قبل أن يسبقنا أحد آخر ، ونبلغها الخبر بحيث لا نصدمها .

ووافق عبد الكريم وماهر .

وذهبنا نحن الثلاثة إلى فتحية .. وجلسنا إلى مائدة فى الحانة ، ونحن نرقبها بأعين مشفقة وهى تتحرك بين زبائنها فى نشاط ومرح ..

ولمحتنا ..

وجاءت وجلست معنا ..

وأخذنا نتحدث .. وكلامنا يتكسر على ألسنتنا .. وهى تنظر إلينا كأنها تحس أن هناك شيئا نحاول أن نقوله ولا نستطيع .

وفجأة دخل كمال ، وهجم على مائدتنا .. ومد عنقه فى وجه فتحية ، قائلا :

– ألا تعلمين .. لقد عاد حسن .. وصل اليوم .

وشهقت فتحية وقفز رأسها إلى أعلى .. وارتسمت ابتسامة فرحة بلهاء على شفتيها ، ثم أدارت عينيها فى وجوهنا كأنها تسألنا عن مدى صحة الخبر .. وأحنينا رءوسنا حتى لا ترى أعيننا ..

وانطلق كمال كالصاروخ متمماً كلامه :

– لقد عاد ومعه زوجة .. لقد تزوج حسن ..

واتسعت عينا فتحية وهى تنظر بهما إلى كمال كأنها لا تراه .. ثم سقط رأسها على صدرها .. وبقيت فترة وهى صامتة .. صدرها يتهدج .. والدماء تحتقن فى عنقها السمين .. وبدت كأنها تبذل مجهوداً عنيفاً لتسيطر على إرادتها .. ثم رفعت رأسها فى وقار كأنها ملكة بريطانيا .. وعلى شفتيها ابتسامة هادئة وقالت فى صوت مرتعش :

– طبعاً .. كان يجب أن يتزوج حسن ..

ثم أدارت رأسها إلينا وقالت :

– المهم أن أراه فى أسرع وقت .. إنه لن يستطيع أن يدبر أمره فى لندن .. لقد كان دائماً يعتمد علىّ .. ثم إنه الآن ليس وحيداً .. إن معه زوجته ..

ثم قامت وتركتنا .. ونحن نتبعها بعيوننا المشفقة .

ولم تكد فتحية تخطو بضع خطوات بين الموائد ، حتى توقفت ، واستدارت تنظر ناحية الباب .. والتفتنا معها .. وإذا بشاب أسمر وسيم ، عالى الجبهة ، تطل ابتسامته الهادئة من تحت شاربه ، وبجانبه سيدة مصرية أنيقة جميلة صغيرة ، حامل ..

وصاح عبدالكريم :

– حسن ..

ثم هرع إليه ..

وصافحه حسن وهو يدير عينيه فى أنحاء الحانة .. ثم توقفت عيناه على وجه فتحية .. واتسعت ابتسامته .. ولوح لها بيده .. وخطا نحوها تاركاً زوجته خلفه .. وخطت فتحية نحوه .. وهمس وهو يمد ذراعيه إليها :

– فتحية ..

وهمست وهى تلتقط كلتا يديه :

– حسن ..

واحتضنها إلى صدره ..

وانطلق السكارى من زبائن الحانة يضحكون ضحكات عالية ..

ولمحت دموع فتحية تسيل على وجهها وتخط خطاً عميقاً بين أصباغها .

وأفلتها حسن من بين ذراعيه وسحبها من يدها ، إلى حيث تقف زوجته .. وسمعته يقول لها :

– عنايات زوجتى .. لقد حدثتها عنك كثيراً .. قلت لها إنك أكرم وأطيب إنسانة .. وإنه لولاك لكنت الآن من ضحايا الحرب ..

وشدت فتحية عنايات واحتضنتها .. ثم قالت فى مرح .. مرح حقيقى :

– إنها مناسبة يجب أن نحتفل بها ..

ثم نادت كبير الجرسونات وأمرته أن يغلق جميع أبواب الحانة ، حتى لا يدخل مزيد من الزبائن .. ومدت لنا مائدة كبيرة .. وأخرجت كل ما عندها ..

وعرفونى بحسن ..

إنه شخص آخر غير ما تصورته .. ربما صوره لى أصدقائى صورة مبالغاً فيها ، وربما هو الذى تغير خلال السنوات الست التى انقضت منذ ترك فتحية .. إنه هادىء .. ذكى .. لا يشرب كثيراً .. بل لا يدخن أيضاً .. وزوجته تنظر إليه كأنه أعظم رجل فى العالم .

والحديث كله بين حسن وفتحية .. يستعيدان ذكرياتهما ..

وعنايات تقاطعهما أحياناً فقط لتثبت أن حسن روى لها كل شيء .. كل التفاصيل .

وقالت فتحية لحسن :

– أين ستقيم ؟

وقال حسن :

– وجدت شقة فى حى بيزووتر .. غرفة واحدة .. أربعة عشر جنيهاً ..

وقالت فتحية ضاحكة :

– خدعوك كالعادة .. سأجد لك غداً شقة غرفتين بعشرة جنيهات فى حى أرقى .. إنك الآن فى حاجة إلى غرفتين من أجل المولود ..

وابتسمت عنايات قائلة :

– لقد قال لى حسن إننا نستطيع أن نعتمد عليك .

●●●

وبقى حسن وزوجته فى لندن عاماً واحداً أتم فيه دراسته .. وبقيت فتحية صديقة له ولزوجته عنايات .. لقد عادت عنايات وحدثتنى عن فتحية كأنها أعز صديقاتها ..

وبعد عامين عدت مرة ثانية إلى لندن ، وذهبت إلى حانة فتحية..

ورأيتها .. إنها أسمن مما كانت .. وأقل نشاطاً .. والمساحيق زاد صراخها على وجهها ، وكانت جالسة على مائدة تضم ثلاثة من الشبان الهنود .. وناديتها :

– فتحية ...

ونظرت إلىّ كأنها لا تعرفنى ، وقالت فى لهجة حازمة :

– اسمى ليس فتحية .. اسمى هاتون راجا كريشنا .

ونظرت إليها فى تعجب ..

إنه اسم هندى ..

ثم لاحظت أنها تضع على جبينها الدائرة الحمراء الصغيرة التى تسمى « تيكا » والتى يحلى بها نساء الهندوس جباههن ..

وقالت فتحية أو هاتون ، وهى لا تزال تنظر إلىّ كأنها لا تعرفنى :

– هل تريد شيئاً ؟

قلت :

– لا ..

ولم يكن فى الحانة كلها أحد من المصريين ..

وخرجت ..